دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الدّعوة الشّيعيّة الفاطميّة في ليبيا ومَوقف المَالكيّة منها صُمُود المذهب المالكي ضد المذهب الشّيعي الإسماعيلي ٢٩٧ – ٤٤٣ هـ/٩٠٩ – ١٠٥١م

د. رمضان محمد رمضان الأحمر
عضو هيئة التدريس بقسم التاريخ
كليّة الآداب – جامعة بنغازي
بنغازي – دولة ليبيا

مُلَخّص

سَعَى الفاطميّون منذ أن أعلنوا عن قيام دولتهم الشيعية في المغرب الأدنى (ولاية إفريقيّة) سنة (٢٩٧هـ/٩٠٩م)، إلى السيطرة على ليبيا وإخضاعها لحكمهم، وعملوا على نَشر مَذهبهم الشيعي بين أهاليها، كونه خُطوةً أَوَليّة في مشروعهم التَّوَسّعي وأمانيهم الواسعة في حكم كل البلاد الإسلامية. وفي هذا البحث سَنتعرف على السياسة التي اتّبَعَها الفاطميون ووسائلهم التي استخدموها لنَشْر مَذهبهم الشّيعي بين أهالي ليبيا، مع توضيح لأوضاع مَالكية ليبيا في ظلّ الحكم الشيعي، إلى جانب معرفة أهم الأسباب التي جعلت معظم الأهالي ينبذون المذهب الشيعي، وفي المقابل ثبات نفوسهم على المذهب السُّنّي المالكي. وتكمن أهمية دراسة هذا الموضوع في أنه قد يُفيدنا -حاليًا ومستقبلاً-في معرفة الوسائل التي تُساعدنا على حفظ مذهبنا المالكي من الحركات الدينية الهَدّامة وتسمح لنا بالاحتفاظ بهويتنا الدينية السَّمحة من الأفكار الدخيلة والمعتقدات المتطرفة. وقد استخدمنا في كتابته المنهج التاريخي الاستردادي، الذي يعتمد على السّرد من ناحية وعلى القياس والتّحليل والاستنباط من نواح أخرى. وبفضل استخدام هذا المنهج تَوَصّلَت الدراسة إلى أنه على الرغم من اهتمام الفاطميين بأمر الدعوة الشيعية في ليبيا إلا أنها كانت قد باءت بالفشل، حيث إنّ جُلَّ ما حصل عليه الفاطميون من الليبيين هو الإخضاع السياسي فقط، أما من حيث العقيدةُ والمذهبُ فلم يَظفروا بشيء لدى أغلبيتهم الذين ظَلّوا على مَالكيّتهم ولله الحمد. وكان من أهم أسباب فشل دعوة الفاطميين هو عُلَمَاء المالكية وفُقَهَاؤها من الليبيين الذين صَبروا على اضطهاد الفاطميين وقمعهم الفكري، فظَلّوا في البلاد ولم يُهاجروا منها، فكان لثَبَاتهم على الحق وصُمُودهم أثره على عامة الناس فيها، الذين صَبروا لصَبرهم وتَقَوّوا بقوتهم، فكانوا بذلك أداة ثبات وحفظ للمذهب المالكيّ في ليبيا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٥	يناير	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	١٦	فبراير	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الفاطميون؛ ليبيا؛ الدعوة الشيعية؛ المذهب المالكي؛ الدولة الفاطمية

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/KAN.2023.324201

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

رمضان محمد رمضان الأحمر. "الدعوة الشيعية الفاطمية في ليبيا وموقف المالكية منها: صمود المذهب المالكي ضد المذهب الشيعي الإسماعيلي ٢٩٧ – ٤٤٣ هـ/٩٠٩ – ١٠٥١ م"- دورية كان التاريخية- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ٥٠ – ٧٢.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: r.alahmer@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدّمَةُ

يُنْسَبُ الفَاطميّون إلى الإسماعيلية، الذين هم فرْقَة من فرَق الشّيعة، عُرفَت بذلك نسْبَةً إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصّادق، المُتَوَفَّ سنة ١٤٣هـ/٧٦٠م[١]. وسُمُّوا بالفَاطميّة لأنهم يرون أنهم يعودون بنسبهم إلى علي بن أبي طالب (ﷺ) من زوجه فاطمة الزهراء تحديدً -رضي الله عنها- ابنة الرسول (ﷺ)[٢]. وقد استطاع الفاطميّون إقامة دولة لهم في المغرب الأدنى (ولاية إفريقيّة) منذ أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي (٢٩٧هـ/٩٠٩م)، وذلك بعد نجاهم في هزيمة الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ/٨٠٠-٩٠٨م) -الذين كانوا يحكمون إفريقيّة باسم الخلافة العباسية- والاستيلاء على مُلكهم في بلاد المغرب، وإعلان الخليفة الفاطمي الأول عُبَيد الله المهدي (٢٩٧-٣٢٢هـ/٩٠٩-٩٣٣م) عن قيام الخلافة الفاطمية الشّيعيّة من مدينة رَقّادة التّونسيّة -عاصمة الأغالبة الخاصة- سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م، بعد أنْ استقرت قدمه في البلاد ودانت له أهلها.[٣]

وبمجرد أنْ سيطر الفاطميون على إفريقية سَعوا إلى السيطرة العسكرية على ليبيا وإخضاعها لحكمهم، كما عملوا على نَشر مَذهبهم الشيعي بين أهاليها، كونه خطوة أوَليّة في مشروعهم التَّوَسّعي وأمانيهم الواسعة في حكم كل البلاد الإسلامية. وفي هذا البحث سَنتعرف على السياسة التي اتّبَعَهَا الفاطميون في محاولة نشر مذهبهم الشيعي بين أهالي ليبيا، ووسائلهم التي استخدموها للوصول إلى هذه الغاية، مع توضيح لأوضاع مَالكية ليبيا في ظلّ الحكم الشيعي، إلى جانب معرفة أهم الأسباب التي أدّت إلى عدم تأثر معظم أهالي ليبيا بالمذهب الشيعي، ورفضهم له على الرغم من خُضُوعهم السياسي التام للفاطميين في ذلك الوقت، وفي المقابل ثبات نفوسهم على المذهب السُّنّي وبالخُصُوص المالكي، وعدم تزعزع إيمانهم به -ولله الحمد- إلى يومنا هذا.

وتكمن أهمية دراسة هذا الموضوع وما يَتَمَخّض عنه من نتائج في أنه يُعطينا العظَة والتّدَبّر التاريخي، إلى جانب استيعاب وإدراك ما يُفيدنا -حاليً ومستقبلً- في الاهتمام بالوسائل التي تُسَاعدنا في حفظ مَذهبنا المالكي من الفرَق الضّالّة والحركات الدينية الهَدّامة التي تأتي تحت مُسَمّيَات بَرّاقَة في العادة، وفي الوقت نفسه تسمح لنا بالاحتفاظ بهويتنا الدينية السَّمحة من الأفكار الدخيلة والمعتقدات المتطرفة، التي عادةً ما تستهدف النَّشء الذين هم عمَادُ أيّ أُمّة ومستقبلها.

ولكي تصل هذه الدراسة إلى الأهداف المطلوبة منها استخدمنا في كتابتها المنهج التاريخي الاسترادادي، الذي يعتمد على السرّد من ناحية وعلى القياس والتحليل والاستنباط من نواح أخرى، وكل ذلك استنادً على ما حصلنا عليه من مادة تاريخية مستقاة من المصادر الأصيلة. وبفضل استخدام هذا المنهج انتهى البحث -بمشيئة الله- بخاتمة فيها حَوصلة لمَا في المقال من خُلَاصة، وأهم النتائج.

ومن الضرّوري أنْ نُوَضّح أنّ ليبيا خلال عصورها التاريخية المختلفة لم تكن في معزل عن محيطها الإقليمي وموقعها الجُغرافي المتوسط بين مصر وتونس، فَطَرابلس جُغرافيً كانت تمثل الجزء الشرقي من المغرب الأدنى (ولاية إفريقية)، وغالبً ما تكون تخضع للحكم السياسي في حواضره، سواء كانت القيروان أو رَقّادة أو المَهْديّة[٤] أو المَنصُوريّة[٥] ...إلخ. وكذلك برقة كثيرً ما كانت تخضع للحكم السياسي الموجود في مصر وتتبعها إداريًّ، إلا في فترات متقطعة خرجت فيها عن سيطرة الدولة وأصبحت قبائلها هي من يقرر مصيرها. لذلك عند تناولنا لموضوعات مقالنا هذا لن نكون بعيدين عمّا كان يجري في الجارتين مصر وتونس على يد الفاطميين، فتاريخ ليبيا (طرابلس وبرقة) خلال العصور الإسلامية الأولى والوسطى ما هو إلا جزء من تاريخَيهمَا، واستقطاعه بهذا الشكل والمُسَمّى ما هو إلا مُجَاراة للتقسيم الجُغرافي والسّياسي الذي فُرضَ على المنطقة منذ مَجيء العثمانيين ومن بعدهم الاستعمار الأوروبي الحديث.

مدخل (توطئة)

كانت الدولة الفاطمية منذ تأسيسها دولة عَقَديّة الجوهر والمَضمون، فالتَّشَيّع ومحاربة السّنّة هما ركيزتها ومنْهَاجُهَا، والقضاء على دولة بَني العَبّاس كان غايتها السياسية الأولى. ومن هنا حرص عُبَيد الله المهدي -منذ أنْ أعلن عن قيام دولته المَغربيّة- على المسير إلى مصر وانتزاعها من العَبّاسيين وحكمها شيعيًّ، ثم الامتداد منها إلى شبه الجزيرة والشام فالعراق، انتهاءً بالقضاء على

منصب الخليفة رمز السّنّة في الحكم، وهو الهدف الأسمى وخاتمة المطاف[٦].

ولكي يُحَقّق الفاطميون مشروعهم هذا، كان لزَامً عليهم تأمين وصولهم إلى مصر والامتداد إليها، وهذا لا يَتَأتّى إلا بإحكام سيطرتهم على ليبيا أولً، التي كانت ولا زالت -بحكم موقعهما المميز- بمثابة حلقة الوصل والجسر الرابط بين مصر وولاية إفريقية بشكل خاص، وبين مَشرق العالم الإسلامي ومَغربه بشكل عام. لذلك عمل الفاطميّون على السيطرة عليها منذ أنْ أعلنوا عن قيام دولتهم، فبمجرد قضائهم على دولة الأغالبة وسقوط ولاية إفريقيّة في أيديهم، أصبح إقليم طرابلس ضمنيً من أملاك الفاطميين لكونه يُمَثّل الجزء الشرقي من إفريقية. فأرسل إليه المهدي سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م من مقر حكمه في رَقّادة عامله ماكنون بن ضبارة الألجائي[٧]. فكان بذلك أول وال شيعيّ على طرابلس من قبَل الفاطميين.

ولم يَلبث الفاطميون بعد ذلك أنْ شرَعُوا في مَدّ سُلْطَانهم على بَقيّة المُدن والأراضي السّاحلية الليبية، التي سَتُوَفّر لهم بعد سنوات طريقً آمنة إلى مصر، فَجَهّزَ الخليفة المهدي لذلك حملة للسيطرة عليها في سنة ٣٠١هـ/٩١٣م بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي (ت: سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م)، تَمَكّنَت من السيطرة على مدينة سرت بالأمان وهرب من كان فيها من الجُنْد العباسي. وحصل لمدينة أجدابية ما حَصَلَ لسرت فدخلها الجند الفاطمي بالأمان أيضً، وهرب من كان فيها من بَني العبّاس. واستمرّت الحملة في المسير وكان عُبَيد الله يَمُدّها بالجيوش في مسيرها إلى أنْ وصلت إلى برقة[٨]، وتمكنت من الاستيلاء عليها بعد تَنَافُر حصل بين قادة الجيش العباسي مما ساعد على انهزامهم واندحارهم إلى مصر[٩].

وبسقوط برقة أصبحت جميع الأراضي السّاحليّة اللّيبية تخضع للفاطميين الشيعة، الذين لم يَهنؤوا بهذا الخُضُوع في بادئ الأمر، فما لَبثتْ مقاومة الأهالي للحكم الجديد أنْ بدأت تتوالى من هنا وهناك، كانت أولها ثورة أهالي طرابلس سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م[١٠]، ثم ثورتهم الثانية سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م، التي حُوصرَت فيها المدينة لمدة ستة أشهر[١١]، حتى أكل أهلها المَيتَةَ من الجوع[١٢]. وبعدها ثورة أهالي برقة سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م، التي استمرت مُدّة ثمانية عشر شهرً وانتهت سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م، بعد أنْ حاصرها الفاطميون حتى "أفنت الحرب أكثر أهلها"[١٣].

وكانت آخر الثورات المناهضة للفاطميين في ذلك الوقت هي ثورة أهالي جبل نفوسة سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م، التي أخمدها الفاطميون بعد حصَار وقَتْل وسَبْي إلى أنْ استكان الأمر لهم سنة ٣١١هـ/٩٢٣م[١٤]. وبانتهاء ثورة نفوسة دانت البلاد للحكم الجديد، وأصبحت ليبيا خاضعة تمامً للحكم الشيعي الفاطمي، باستثناء الجنوب اللّيبي الذي لم يكن للفاطميين صالحٌ لمد سيطرتهم عليه في ذلك الوقت، حيث إنّ جُلّ اهتمامهم كان منْصَبًّ على السيطرة على الأقاليم والمُدُن التي تقع بها الطريق السّاحلية المُوَصّلة إلى مصر هدفهم الأسمى.

وعلى ما يكون، بخضوع ليبيا للحكم الفاطمي أصبحت سياسيً تحت حكم دولة شيعية فَتيّة، عَقَديّة في المقام الأول كما ذكرنا، كان من أهم أهدافها وأعظم سياساتها محاولة نشر مذهبها الشيعي على جميع الأقاليم والبلدان والمُدُن التي تقع على الرقعة الجغرافيّة للعالم الإسلامي كله، فَمَا بالك بتلك التي تخضع لسيطرتها المباشرة. لذلك عمل الفاطميّون على نشر مَذهبهم الشيعي بين أهالي ليبيا، في محاولة لاستبداله بما يَعتنقونه من مذاهب، ولا سيّما المذهب المالكي الذي كان -ولا يزال- يَتّبعه غالبية السّكان، باستثناء بعضهم على المذهب الإباضي في جبل نفوسة وفي نواحي طرابلس.

أولاً: سياسة الفاطميين ووسائلهم لنَشْر المذهب الشّيعي بين سُكّان المغرب عُمُومًا وليبيا خُصُوصًا

من المعروف تاريخيً أنّ الدولة الشيعية الفاطمية قامت في بلاد المغرب الإسلامي على أساس الدعاية والدعوة الدينية، التي قد يعتقد بعض الباحثين أنها كانت قريبة العهد من إعلان الفاطميين لدولتهم في سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م، بل إنها كانت أبعد من ذلك، حيث يرى بعض الباحثين المحدثين أنّ بدايات الدعوة الشّيعيّة ترجع في أصولها أو بذرتها الأولى منذ تَوَلّيّ معاوية بن أبي سفيان الخلافة إثر وفاة سيدنا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وحرمان أبنائه الحسن والحسين من الخلافة (رضي الله عنهما)[١٥]. وهناك من يرجعها إلى أبعد من ذلك إلى بُعَيد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتَوَلّيّ أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) الخلافة من بعده[١٦]،

فالمُتشَيّعون لسَيّدنا عَلي (ﷺ) كانوا ولا يزالون يَرون بأنه أحق للخلافة من أبي بكر وعمر بن الخطاب (ﷺ)، ولكن سياسة الخليفتين الحكيمة الراشدة في الحكم كَبَحَت جَمَاح الشيعة، إلى أنْ تَوَلّى الخلافة عثمان بن عفان (ﷺ) فكانت سياسته في الحكم مثار سخط في أغلب الولايات الإسلامية، وأتاحت لأنصار عليّ (ﷺ) فرصة لتحويل الخلافة إلى أهل البيت، وبعث الدُّعَاة إلى الأمصار المختلفة يدعون له بالخلافة[١٧]، وهو رضي الله عنه بَريءٌ من ذلك.

ومنذ ذلك الوقت والدُّعَاة لآل البيت منتشرون في الأقاليم الإسلامية لدعوة الناس في محاولة لإقامة دولة لهم، وقام العلويون في سبيل ذلك بعدة ثورات عنيفة تعرضوا من ورائها للتنكيل والقتل سواء في عصر الأمويين أو العباسيين من بعدهم[١٨]. إلى أنْ استطاعوا في آخر المطاف -بعد تكثيف لحركة الدعاة والنشاط في توزيعهم على أرجاء العالم الإسلامي- أن يُقيموا الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، التي هي أول دولة شيعية أعلنت عن وجودها صراحةً في العالم الإسلامي وبحَدّ السَّيف.

وقد وَاجَهَ قيام دولة الفاطميين في ذلك الوقت عَقَبَات جَمّة، فهي نشأت وقامت من بين ست دول أو أكثر من ست دول إسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبة قيامها[١٩]، وأسّسَت حَقّها على دعوة يَتَألّب الخُصُوم من حولها على إنكارها، واعتمدت في الدعوة على وسائل لم يسبقها إليها سابق ولم يلحقها نظير لها في تلك الوسائل إلى وقتنا الحالي[٢٠]. وقد انتشر الدُّعَاة الفاطميون في كل مكان حتى وصلوا إلى بغداد ذاتها، حيث طُردَ الخليفة العباسي منها وخُطبَ للخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م) على يد أبي الحارث أرسلان البَسَاسيري (م: سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م)، لمدة سنة كاملة من شوال سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م إلى شوال سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م، وانتهت بوصول السّلاجقة إلى بغداد وإعادتهم الخليفة القائم بأمر الله العباسي إليها[٢١].

وقد كانت بلاد المغرب الإسلامي من ضمن الأقاليم التي أرسل الفاطميون إليها دُعَاتهم، الذين اشتهر منهم داعيّان كان قد أرسلهما جعفر الصّادق[٢٢]، أحدهما يُعْرَف بالحَلْواني والآخر بأبي سفيان، حيث قال لهما: "بالمغرب أرض بور فَاذْهَبَا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر"[٢٣]. فَأَخَذَا يَدْعُوان الناس لطاعة آل البيت، حتى استمالاَ قلوب الكثيرين من قبيلة كُتامة المغربية وغيرها، وظَلاّ هناك إلى أنْ مَاتَا[٢٤].

وبعد الدور الذي قام به الحَلْواني وأبو سفيان أصبحت بلاد المغرب الإسلامي مُهَيَّأة لتَقَبّل الداعية الجديد. عندها أرسل ابن حوشب[٢٥] أبا عبد الله الشّيعي وكَلّفه القيام بالدعوة للمذهب الإسماعيلي في تلك البلاد، قائلً له: "إن أرضَ كُتَامةَ من المغرب قد حَرثها الحَلْواني وأبو سفيان، وقد مَاتَا وليس لها غيرك، فبادر فإنها مُوَطَّأة مُمَهدَة لك"[٢٦]. فَنَجَحَ أبو عبد الله الشيعي في دعوته نجاحً منقطع النظير، بما اجتمع إليه من علْم وفَهْم ودَهَاء ومَكْر، وبما استخدمه من ضرُوب الحيَل؛ التي منها السّحر والطّلاسم والرّقى والأحجبة (النّارنجيات) التي تُذْهلُ العُقُول وتُبْهرُ النفوس، فالتَفّ الناس حوله وعظم شأنه وأَتَتْهُ القبائل المغربية من كل حَدْب وصَوب[٢٧]، فَقَوِيَتْ شوكته، وانتهى أمره بإعلان قيام دولة الفاطميين الشيعية. وأبو عبد الله الشّيعي هذا يُعَدّ المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية في بلاد المغرب، وقد انقسم تاريخ دعوته التي قام بها هناك إلى مرحلتين: المرحلة الأولى كانت مجرد دعاية سلميّة ودعوة لجذب الأنصار استغرقت ثلاث سنوات (٢٨٨-٢٩١هـ/٩٠٠-٩٠٣م). ثم تأتي بعد ذلك المرحلة الثانية وهي جهاد حربي طويل انتهى بالاستيلاء على القيروان عاصمة الأغالبة وقيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م[٢٨].

وبإعلان أبي عبد الله الشّيعي الحرب في مرحلة دعوته الثانية وهي مرحلة تأسيس الدولة بقوة السّلاح، أصبحت وسائل الفاطميين لدعوة الناس إلى مَذهبهم في الأقاليم الخاضعة لهم تسير على خَطّين متوازيين مع بعضهما بعضً، أيّ وسائل سلميّة عن طريق الدعاية لمذهبهم والدعوة له بالترّغيب والتّحبيب، وفي الوقت نفسه من يرفضه ويجابهه وينفر منه ولا سيّما إذا كان من المالكية، فإنه يتعرض للترهيب والتنكيل والقتل. وهذه السياسة أكّدَها عبيد الله المهدي بمجرد استلامه الحكم من الداعية أبي عبد الله الشيعي، حيث يُخبرنا ابن الأثير أنّ الخليفة الفاطمي كان قد "أمر يوم الجمعة بذكر اسمه في الخُطبة في البلاد، وتَلَقّبَ بالمهدي أمير المؤمنين. وجلس بعد الجمعة رَجلٌ يُعرف بالشرّيف ومعه الدُّعَاة، وأحضروا الناس بالعنف والشّدّة ودَعوهم إلى مذهبهم، فمن أجاب

أحسن إليه، ومَن أَبَى حُبسَ، فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس -وهم قليلٌ- وقتل كثيرٌ ممّن لم يوافقهم على قولهم"[٢٩].

وعلى ضوء هذه السياسة -ذات الخَطّين المتوازيّين- التي اتّبعها الفاطميون لمحاولة نشر مذهبهم الشيعي بين سكان المغرب الإسلامي، سنتناول الوسائل والطرق التي اتّبعوها بالخُصُوص بين سكان ليبيا، وهي كما أسلفنا لم تكن في معزل عَمّا اتّبعه الفاطميون من وسائل لنشر مذهبهم في الأقاليم الأخرى، سواء لما كانوا في بلاد المغرب، أو بعدها عندما استولوا على مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، وانتقلوا إليها واستقروا بها منذ سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م، ومنها وَسّعوا نشاط دعوتهم في بلدان المشرق الإسلامي، كسوريا والعراق واليمن وبلاد الحجاز وغيرها من البلاد.

١/١-وسائل وطُرُق سلْميّة

(١/١) ١-عن طريق الدّعوة والدّعاية

الدّعوة والدّعاية هي الطريقة الأولى التي استخدمها الفاطميّون لاستقطاب الناس لمذهبهم وذلك قبل أنْ تَشْتَدّ شوكتهم ويرهب جانبهم. وحسب الخطة التي وضعها الفاطميون في مشروعهم لَمَدّ سُلطانهم على جميع بلدان العالم الإسلامي كان جعل ليبيا منطقة شيعيّة خالصة أمرً حَيويًّ في هذا المشروع. لذلك استهدفت حملات الدعوة والدعاية الشيعية أقاليم ليبيا ومُدُنها في مرحلة السّتر قبل أن يُعْلنَ الفاطميين عن قيام دولتهم المغربية، ولا سيّما في إقليم طرابلس القريب جغرافيًا من مواطن قُوَى الفاطميين في بلاد المغرب، بخلاف إقليم برقة الذي كان يخضع مباشرة لحكم العباسيين السُّنّة في مصر.

وإنّ سقوط طرابلس في يَد الفاطميين بمجرد سقوط الحكم الأغلبي في القيروان ورَقّادة ما هو إلا انعكاس لجُهد الدُّعَاة فيها، الذي أوجد مع الزمن عددً من المتشيعين من أهلها -وإن كانوا قليلي النسبة- كان لهم دورٌ في السّقوط الأوّلي للمدينة من غير قتال. ومن المؤكد أنّ دُعَاة الفاطميين وشيعَتهم في طرابلس كانوا قد استخدموا فَنّ التّخذيل وبَثّ روح الهزيمة في المدينة، وهو ما يُعرف بالطابور الخامس في العصر الحديث، وهو من الوسائل التي كان الفاطميون يعتمدون عليها في مَدّ سلطانهم على المدن والأقاليم المختلفة[٣٠]. وهذا ما يُفَسرّ ما حصل في سرت وأجدابية وبرقة عند قُدُوم الجيش الفاطمي لها، حيث دخلها قائد جيوش الفاطميين حباسة بن يوسف بالأمان من غير قتال، بعد هروب الجند العباسي وانسحابه منها بشكل مريب يدعو للعجب[٣١].

وفيما يخص الدُّعَاة الفاطميون على أرض ليبيا لم تذكر لنا المصادر التاريخية سواء السُّنّيّة منها أو الشّيعية أسماء أشخاص بعينهم تَوَلّوا أمر الدعوة المباشرة فيها، وإنْ كنّا من خلال تتبعنا للسرد التاريخي وقراءتنا لمجريات الأحداث في تلك الفترة واستخدامنا للمنهج الاستنباطي، نجد أنّ ليبيا كان قد مَرّ بها واستوطنها عدد من كبار دُعَاة الفاطميين الذين كان لهم دورٌ رئيسٌ في الدعوة إلى قيام الدولة الفاطمية الشيعية وترسيخ مبادئها. كان من هؤلاء الدُّعَاة على سبيل المثال لا الحصر، أبو العباس المعروف بالمُخْطُوم وهو أخو الداعية أبي عبد الله الشّيعي، وكذلك أبي جعفر الخَزَريّ (م: سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م)، اللّذان مَكَثَا فترة من الزّمن في طرابلس في انتظار انتهاء العمليات العسكرية التي كان يقوم بها أبي عبد الله الشّيعي للقضاء على دولة الأغالبة. ومن غير شَكّ أنّ هَذين الدّاعيَيْنّ كانا يقومان بعملهما في دعوة أهالي طرابلس -خفْيَة وتَقيّة- للمذهب الشيعي الإسماعيلي، حيث إنهما كانا يجتمعان في المسجد الجامع الذي بالمدينة، فيتناظران في العلم بحضرة أهل المسجد، ويُظْهرُ كل واحد منهما خلاف صاحبه والطّعن عليه بالبرَاءَة منه ويُكَفّرُه، وكل ذلك حتى لا يفتضح أمرهما، وعُيُون الأغالبة تترقبهما[٣٢].

وإلى جانب هّذَين الدّاعيّين وغيرهما من الدُّعَاة كان هناك عَدَدٌ من كبار قُضَاة الشّيعة الذين أرسلهم الخلفاء الفاطميون لأداء مهامهم القَضَائيّة في ليبيا، وهم في الأصل كانوا دُعَاةً في مواطنهم، منهم أفلح بن هارون الملوسي (م: ما بين سَنَتَي ٣٠٨هـ-٣١٠هـ/٩٢٠-٩٢٢م)، وهو أحد تلاميذ الداعية أبي عبد الله الشيعي وأكثرهم مَوهبةً، خلفه في منصب داعي الدُّعَاة بعد مقتله سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م[٣٣]، وكان قد أرسله الخليفة المهدي قاضيً على طرابلس إثر قيام الدولة الفاطمية، ولما انتقل المهدي للسكن في عاصمته الجديدة المهدية واستقرّت قدمه فيها كَلّفَهُ النظر في القضاء بالمهدية ورَقّادة وفي جميع ولايات الخلافة وأعمالها[٣٤]. أي أصبح قاضيَ قُضَاة الدولة كلها، ومنذ ذلك الوقت أصبح تقليدً لدى الدولة الفاطمية أنْ يتولى

قاضي القُضَاة منصب داعي الدُّعَاة في الوقت نفسه؛ صورة لتوحيد الظاهر والباطن أو الشريعة "الظاهرية" وتأويلها "الباطني" في شَخْص واحد، وذلك لما يَتَمَتّع به دَاعي الدُّعَاة من مَزايا تُؤَهّله لشَغْل هذا المنصب المميز[٣٥].

وكان دَاعي الدُّعَاة الثالث في تاريخ الدولة الفاطمية - بعد الشّيعي والملوسي- هو القاضي النّعمان (ت: سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م)، صاحب المؤلفات المشهورة في تاريخ الدعوة الإسماعيلية والتعريف برجالها، وهو كَسَلَفه كان قاضيً بطرابلس ليبيا في بداية أمره، إلى أنْ ولاّه الخليفة المنصور الفاطمي (٣٣٤-٣٤١ هـ/٩٥٤-٩٥٢م) قاضيً للقُضَاة وداعيً للدُّعَاة بمُدُن المَنصوريّة والمَهديّة والقَيروان وسائر مُدُن إفريقية وأعمالها، وكتب له عهدً بذلك عُمّمَ في الأقاليم ونشر بين الناس[٣٦]. ويُعَدّ القاضي النّعمان هو مؤسس مدرسة الفقه الإسماعيلي الشّيعي، ويظل كتابه الرئيس "دعائم الإسلام"[٣٧]، المرجع الكلاسيكي لهذه المدرسة إلى يومنا هذا[٣٨]. لهذا استحقّ مكانته التاريخية كونه أشهر من تَوَلّى منصب قاضي القُضَاة ودَاعي الدُّعَاة في دولة الفاطميين الشيعة بأسرها.

ونختم حديثنا عن القُضَاة الدُّعَاة الذين مارسوا عملهم القَضَائي والدَّعَوي في طرابلس، بقَاض من أهل البلد هو محمد بن الحسن بن أبي الدبس الطرابلسي، الذي كان قاضيً على طرابلس إلى أن استدعاه الوزير الفاطمي يعقوب بن كلّس -(م: سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)- إلى مصر، وأمره بالنظر في الأحكام، وفَوّضَ إليه قضاء دمياط وبلبيس والفرما وغيرها[٣٩]. واستمر ابن أبي الدّبس في تكليفه الجديد إلى تُوُفّيَ سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م[٤٠].

ومن خلال شُخُوص كبار الدُّعَاة وأعلام القُضَاة الذين ذكرناهم، نستشف أنّ أمر الدعوة الشّيعيّة في ليبيا وتحديدً في إقليم طرابلس الغرب كان يمثل أهمية كبرى للفاطميين ويعد أمرً له شأنٌ بالنسبة لخلفائهم، وليس أدَلّ على ذلك من إرسالهم لتلك الأسماء الرّنّانة والقامات العالية من رجالات الدعوة الشيعية الفاطمية إلى طرابلس، لمباشرة عملهم في القضاء والدّعوة في الوقت نفسه، وهم كأفراد يُعتبرون علامات بارزة لعبت دورها في توطيد الدولة الفاطمية وترسيخ مذهبها الشّيعي وتأصيله بين مُريديه.

ومن المؤكد أنّ دُعَاة الفاطميين في ليبيا كانوا يمارسون دعوتهم -كما هو معتاد- في المساجد الجامعة التي تقع في المدن الرئيسة المكتظة بالناس، دلالة على الهيمنة وفي الوقت نفسه لكي تصل دعواهم إلى أكبر عدد من الناس، ولا سيّما في أيام الجُمعَات التي تمتلئ فيها المساجد بالمُصَلّين على مختلف أعمارهم، فَيستغلون خُطَب الجمعة للدعاية للمذهب الشيعي والتّرويج له بين المُصَلّين في محاولة التأثير عليهم وإدماجهم فيه. ولا نَشُكّ في أنهم قد واجهوا في أثناء أداء وظيفتهم الدَّعَويّة حملات رفض واستهجان ومُنَابذة من قبَل أئمة هذه المساجد وفقهائها من المالكية[٤١]، وكذلك من رُوّادها من عامة الليبيين الذين كان معظمهم على المذهب المالكي -أو الإباضي بنسبة قليلة- الذين لم يستسيغوا هذا المذهب الدّخيل المخالف لعقائدهم وما تآلَفُوا عليه من مبادئ فقْهيّة وعبَادات. لذلك لا نستغرب حملة بناء المساجد التي أطلقها الفاطميون في المدن العامرة بليبيا ولا سيّما في الفترة الأولى من حكمهم، وهي مساجد خاصة للشيعة يستطيعون منها عقد مجالس الدّعوة الشيعية بحرية من غير تدخلات المالكية. وهي الفكرة نفسها التي طَبّقُوها بعد ذلك في مصر، فَبمُجَرّد حلولهم فيها شرَعُوا في بناء الجامع الأزهر سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م، ليكون مسجدً رسميً للدولة الفاطمية ورمزً لدعوتها المذهبية، تُقَام فيه شعائر المذهب الإسماعيلي الشّيعي[٤٢].

ومن أشهر المساجد التي أنشأها الفاطميون في ليبيا – خدمةً لدعوتهم الشّيعيّة- مسجد طرابلس الأعظم، الذي بَنَاهُ أو بالأحرى استكمله الخليل بن إسحاق الطرابلسي (م: سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م) ، ببناء مناره وتشطيبه في العام المُكَمّل للمائة الهجرية الثالثة (٣٠٠هـ/٩١٢م)، وهو جامع مُتّسَع على أعمدة مرتفعة، ومناره مُتّسع مرتفع قائم من الأرض على أعمدة، مستديرٌ إلى نصفه، والنصف الآخر العلوي سُداسي الأضلاع[٤٣]. وكذلك جامع النّاقة الشّهير، التي تُفيد الرواية الشعبية المتواترة لدى أهالي طرابلس أنّ الذي كان سببً في بنائه هو الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله، فعند رحيله من المغرب إلى مصر لاتخاذها مقرًّ لخلافته، كان قد نزل في طريقه بطرابلس ومكث بها للراحة[٤٤]، ومن جَرّاء حَفَاوة الناس في استقباله واحتفالهم بقدومه أكرمهم بأنْ أعطاهم إحدى النّوق المُحَمّلة بالأموال والذهب -التي كانت تعج بها

قافلته- هَديّةً منه إلى الأهالي الذين أكرموا وفادته، فَبَنُوا بتلك الأموال هذا الجامع وسَمّوه جامع النّاقة[٤٥].

وإلى جانب هَذين المسجدين بطرابلس كان هناك مسجد مدينة أجدابية الذي بَنَاهُ الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله (٣٢٢-٣٣٤/٩٣٣-٩٤٥م)، وهو جامع حَسن البناء له صَومعة مُتْمَّنة بديعة العمل[٤٦]، ويرجع تاريخ بنائه إلى الربع الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[٤٧]. وكذلك المسجد الأعظم بمدينة سرت القديمة (سلطان)[٤٨]، الذي اكْتُشفَتْ بقاياه بواسطة الحَفْريّات الأثريّة المتعددة التي أُجْرِيَتْ في المنطقة، والتي رَجّحَت أنّ تاريخ بنائه يعود للفترة العباسية المبكرة، وإنْ كان أُعيدَ بناؤه وتجديده والزيادة فيه خلال العصر الفاطمي، مما جعل آثاره تأخذ شكل البناء المتعارف عليه للمساجد الفاطمية، وتحديدً إلى عصر الخليفة المعز لدين الله، حيث عُثرَ خلال الحَفْريّات بموقع المسجد على قطعة نقود عليها اسم الخليفة المعز، مما أكد ترجيح فترة بنائه وتوسعته خلال الربع الثالث من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[٤٩].

ومن المؤكد أنّ مدينة برقة (المرج) -ذات الموقع الاستراتيجي بالنسبة للفاطميين- لم تكن تخلو من مساجد فاطمية هي الأخرى، ولا سيّما بعد العثور على جزأين من عمود رُخَاميّ يرجع إلى العصر الفاطمي في محراب مسجد الزاوية الذي يقع داخل أسوار المدينة القديمة، وذلك في أثناء تجديده عقب الزلزال الذي أصاب المدينة سنة ١٩٦٢م، ويحمل الجزآن شريطً من كتابة كوفية بارزة نُفّذَت بالخَطّ الكوفي المورق، جاء على أحدهما ذكر الخليفة المعز لدين الله **"مَولانا الإمام المعز خليفة الله"**[٥٠]. مما يدل على أنّ المسجد كان في وقت من الأوقات مسجدً فاطميً، ولا سيما أنّ هذه الكتابات تتفق مع مثيلاتها في الجامع الأزهر في مرحلته الأولى التي ترجع إلى عصر الخليفة المعز لدين الله[٥١].

وعلى الرغم من إشارتنا في توطئة البحث إلى أنّ الفاطميين لم يهتموا كثيرً بمَدّ سيطرتهم على الجنوب اللّيبي، إلا أنهم يبدو في فترة من الفترات كانوا قد اهتموا بأمر الدعوة الشيعية فيه، ولا سيما في حاضرة إقليم فَزّان مدينة زويلة، حيث اكْتُشفَ فيها آثارٌ لمسجد أعظمَ أخذ شكل بقاياه نمط البنَاء الذي اشْتُهرَتْ به المساجد الفاطمية، ولا سيّما تلك التي كانت في بلاد المغرب؛ كالمسجد الأعظم في المهدية، وفي سوسة، وصفاقس، وكذلك التي في ليبيا؛ كمسجدي أجدابيا وسلطان بسرت[٥٢]. وقد دَلّت المكتشفات القليلة من الفخار المزجج الذي وُجدَت داخله وحول أركانه إلى أنّ فترة تشييده لا تَتَعَدّى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[٥٣]. ومما يؤكد اهتمام الفاطميين -المتأخر نسبيً- بمدينة زويلة، هو دينار الذهب الفاطمي الذي اكْتَشَفَتْهُ إحدى الْحَفْريّات الأثرية، والذي سُكَّ بها سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م، وبه اسم الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م)، مع عبارات شيعية خاصة[٥٤]. فلا يكون اهتمامهم بالمدينة وازدهارها إلا باهتمامهم بما هو أهم وأسمى بالنسبة لهم وهو الجانب العقدي الديني.

وعلى ما يكون، فَممّا نلاحظه من عدد المساجد الجامعة التي أنشأها الفاطميون أو التي بَنوها وجَدّدُوها على أرض ليبيا، سواء تلك التي تعرفنا عليها أو الأخرى التي لم نتعرف عليها، ومن خلال توزيعها الجُغرافي الذي غَطّى أغلب حواضر أقاليم ليبيا ومُدنها الرئيسة ذات الفعالية من حيث الموقع والتعداد والنشاط، فإنّنا نُدرك مدى الرغبة التي كانت لدى الفاطميين في نشر مذهبهم من خلال استخدام تلك المساجد في الدعوة والدعاية الشيعية بين أهالي ليبيا، في محاولة منهم لجعل البلاد وسكانها تُدينُ بالمذهب الشّيعي الإسماعيلي.

(١/١) ٢-عن طريق احتفال الدولة بالمواسم والأعياد الدينية وإحياء المناسبات الاجتماعية

كان الاحتفال بالأعياد والمواسم الدينية والمناسبات الاجتماعية من الوسائل السّلْميّة التي استخدمها الفاطميون للدعاية لمذهبهم وتسهيل دعوة الناس له، وقد استخدم الفاطميون هذه الطريقة في الدعوة منذ أن كانوا في بلاد المغرب، ولما انتقلوا إلى مصر زاد اهتمامهم بها بشكل كبير لم يؤلف من قبل ولا من بعد، فالدولة الفاطمية كانت دولة دينية ذات عقائد مذهبية متطرفة، فكانت الحفلات بالنسبة للفاطميين مناسبة لتأكيد عقيدتهم؛ حيث كان معظمها يقام عادةً في الأعياد الدينية الخاصة بالفاطميين. وقد عرف الفاطميون كيف يصبغون الأعياد بصبْغَة إسلامية مَذهبية، وأكثروا منها وبالغوا في إحيائها، فكانت سمَة من السّمَات البارزة للمجتمعات التي

حكموها ولا سيّما المجتمع المصري، مكان إقامة الخليفة الفاطمي.

وكانت هذه الأعياد والاحتفالات تجري حسب رسوم مخصوصة -يشارك فيها الخليفة بنفسه والوزير ورجال الدولة- لم يكن لها مَثيلٌ في التّقاليد العربية أو الإسلامية من قبل. ويُعْتَقد أنّ بعض هذه الرُّسُوم كانت مُسْتَقاة عن بعض الحضارات الأجنبيَّة، القديمة منها كالدولة الفارسية والمعاصرة للفاطميين كالدولة البيزنطية. وإنْ كان من المؤكد أنّ الدولة الفاطمية -لو ثَبُتَ فعلاً أنها استقتها- كانت قد أضافت إليها الكثير لتَتَمَاشَىَ مع أوضاعها الماديّة الثّريّة، وكذلك عقائدها المذهبية. فقد عَرَفَ الفاطميّون كيف يَثْرون أعيادهم بأقصى مظاهر الرّوعة والفخامة والأُبّهَة، ممّا جعلها تمتاز بطابع جديد غير مألوف من قبل[٥٥].

وهم في ذلك كانوا يهدفون إلى غايتين اثنتين: الأولى: أنْ يَبثّوا هيبتهم الدينية بما يَسبغونه من الخُطُورة والخُشُوع على بعض المظاهر والرّسوم فيها. والثانية: أنْ يَغمروا رعيتهم -من خلالها- بسَيل من الحفلات والمآدب والمواكب الباهرة، وأنْ يأسروهم بمظاهر جودهم الوافر، وأنْ يَنثروا عليهم ما استطاعوا من آيات البَهجة والمَرح والحُبُور. كل ذلك لكي يكسبوا ولاءهم وعرفانهم وتأييدهم، ولا سيّما أنهم كانوا يشعرون دائمً أنهم لم يكسبوا كل ولائهم وتقديرهم[٥٦]، مما قد يكون عثرة في مخطط دعوتهم.

وبطبيعة الحال شمل هذا الأسلوب من الدعوة الشيعية والدعاية لها الأقاليم والمدن الليبية، وهي التي كانت تمثل دائمً المعادلة الجغرافية الصعبة التي تربط بين قُطْبَي الحكم الفاطمي في المغرب ومصر. ومن غير الخوض في ذكر الأعياد الكثيرة التي استنها الفاطميون والحديث عَمّا كان يجري فيها من رسوم وطقوس واحتفالات وهي غَنيّة بالتفاصيل والسرد، فَنَخْتَزل الحديث عنها بالحديث المختصر عن عيد واحد -هو عيد الفطر المبارك- مثال لكيفية توظيف الفاطميين الاحتفال به في فرض هَيبتهم على الناس وفي الوقت نفسه تبيان لمظاهر كرمهم وجودهم عليهم، ومن ثَمَّ نَقيسُ على ما كان يجري فيه من مراسم وطقوس واحتفالات ونتصورها -بشكل أقل أو أكثر- على الأعياد الأخرى وهي كثيرة ومتعددة التصنيفات[٥٧].

ونرجع لعيد الفطر الذي جعل منه الفاطميّون في مصر احتفالاً رسميً تُقيمه الدّولة وتُنْفقُ عليه، وكان لهم فيه العديد من الطُّقُوس وضرُوب الخير[٥٨]، كَرُكُوب الخليفة لصلاة العيد بهيأته في المواكب العظَام من المْظلّة والتّاج وغير ذلك من الآلات، ويكون لباسه فيه الثّياب البيض المُوَشّحة. وكذلك تفرقة الفطرة، وتوزيع الكُسْوات (الحُلَل) على الوزراء والأمراء وسائر رجالات الدولة ومُوَظّفيها على اختلاف مراتبهم، لذلك أطلقوا على عيد الفطر "عيد الحُلَل"، لأنّ الحُلَل كانت تَعُمُّ فيه جميع رجال الدولة دون استثناء، بما فيهم أولادهم وزوجاتهم، في حين كان في غيره من الأعياد للأعيان خاصة[٥٩]. كما كان يُعْمَل في أول يوم العيد سمَاطَان[٦٠] كبيران، الأول مُعَبّأ بأنواع الحلويات المختلفة والآخر بأصناف الأطعمة ولا سيّما من مَشَاوي( )الطُّيُور والدّجاج والخرْفَان[٦١]. وبلغ اهتمام الفاطميّين بصلاة العيد أنْ أفردوا لها باباً خَاصًّ من القصر الكبير الشرّقي الذي كان يُقيم فيه الخليفة الفاطمي، يُسَمّى "باب العيد"، يخرج منه الخليفة إلى المُصَلّ، للصلاة بالناس[٦٢].

وبطبيعة الحال ألْقَى أسلوب الدّعوة عن طريق احتفال الفاطميّين بالأعياد في مصر بظلاله على الأقاليم التابعة لهم، فكانت تأخذ مُنْحَنَى مُشَابهً لها في طريقة الاحتفال الرسمي، وفي ليبيا كغيرها من البلدان الخاضعة للفاطميين كان يُسْتَعدّ للاحتفال بعيد الفطر منذ آخر يوم من شهر رمضان، وهو يومٌ معلومٌ في جميع الأقاليم التابعة للفاطميين، حيث كان الفاطميّون لا يعتمدون على الهلال في تحديد نهاية شهر رمضان وأول العيد، بل كان شهر رمضان عندهم ثلاثين يوما بالتَّمَام منذ بدايته[٦٣]. فإذا ما أصبح يوم العيد يبدأ الاحتفال الرسمي بخروج مَوكب عامل الإقليم -سواء في طرابلس أو برقة- بالطُّبُول والبُنُود وهيأة العيد، في طريقه لإقامة الصّلاة في أجواء مَهيبة تعكس شخصية الدولة في نظر رَعيّتهَا. ومن رُسُوم الاحتفال أنْ يقوم قاضي الإقليم بالخُطْبَة ثم الصّلاة ومن خلفه عامل الإقليم ورجال الدولة وعامة الناس[٦٤]. ومن غير شَكّ يكون بعدها تجهيز أسمطة الطعام لعامل الإقليم والقاضي وكبار رجال الدولة، ثم تفريق الفطرة وتوزيع الحُلَل اقتداءً بما كان يُعْمَل بالقاهرة مقر الخلافة الفاطمية.

وإلى جانب عيد الفطر نعرج على مناسبة أخرى جعل منها الفاطميون موسمً خصبً يسهل من خلالها التأثير على الناس والتمكن من استقطابهم للدعوة الشيعية، وهذه المناسبة هي ختَان الأطفال (الطّهور)، الذي استنّ فيه الفاطميون لما كانوا ببلاد المغرب -بما فيها طرابلس وبرقة- سُنّة جديدة في الاحتفال لم يسبقهم إليها أحد، تميزوا بها وكانت صبْغَة من صبْغَاتهم على الحياة الاجتماعية في بلاد المغرب ومن ضمنها ليبيا. وذلك أنهم جعلوا منه مناسبة جماعية واحتفالً شعبيً عامً، تَغْلُبُ عليه سمَات الأعياد وما يحفل فيها من كرم الدولة وفخامتها. حيث كان الخليفة الفاطمي لا يُحَبّذ أنْ يَخْتن أبناءه لوحدهم، فكان يستغل هذه المناسبة ويجعل منها حفل ختَان جماعيً تشهده البلاد كلها، يُختن خلالها الكثير من أبناء الرّعيّة، فَتَكُون مناسبةً مشهودة بالخير تُوَزّع فيها الهدايا والكُسْوَات والهبَات من الأموال[٦٥].

ومما جاء في هذا الصّدَد أنّه في سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م خَتَنَ الخليفة المنصور بنصر الله أبناءه، فَخَتَن معهم ألف صَبي من أبناء أهل القيروان، وقام بكسوتهم وأعطاهم ما يَنفقون[٦٦]. كما أمر أنْ يُكْتَب له أسماء أولاد القادة ووجوه الدولة من قبيلة كُتامة وغيرهم، وأبناء الجند وعامة الناس ليختنوا في هذه المناسبة، فكانوا أكثر من عشرة آلاف. فابتُديءَ في ختَانهم، وعُملت الولائم لأجل هذه المناسبة لعامة الناس وخاصتها، ووُزّعت الكُسْوات والأموال على الصّبْيان بقدر مَراتبهم، فكان يُخْتَنُ في كل يوم ما بين خمسمائة إلى ألف وثلاثمائة صبي، واسْتَمَرّ الحال على ذلك لُمدّة سبعة عشر يومً، شُوهدَ فيها من الإنفاق واللّهو ما لم يُرَ مثله[٦٧].

وقد فاق الخليفة المعز لدين الله والده المنصور في الاحتفال بالختَان كونه مناسبة سعيدة جَمَاعيّة، تَعمّ فيها الفرحة جميع طبقات الشّعب وفئاته، في جميع الأقاليم الخاضعة للفاطميين، تُحْيِيهَا الدولة وتتكفل بمصاريفها. ففي سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م، عندما عزم المعز على خَتْن أولاده عبد الله ونزار وعقيل كتب إلى سائر عُمّاله ووُلاَته بالمغرب من برقة وأعمالها إلى أقاصي سجلْمَاسة وحدودها وما بين ذلك، وما حوته مملكته إلى جزيرة صقلية وما والاها، بطُهُور من وجد من أولاد سائر الخلق غير مُطَهّر، حُرّهم وعَبدهم، وأبيضهم وأسْوَدهم، ودَنيّهم وشريفهم، وملّيهم وذمّيهم، الذين حوتهم المملكة لُمدّة شهر واحد. كما أمرهم بالقيام بجميع نفقاتهم وكُسْوَتهم، وما يُصْلحُ أحوالهم من مَطْعَم ومَشرُب ومَلْبَس وطيْب وغيره على حسب رُتَبهم وأحوالهم. فكان من جملة ما أنْفقَ في ذلك مما حُملَ إلى جزيرة صقلية وحدها من المال -سوَى الخلَع والثّيَاب- خمسون حمْلً من الدّنانير في كل حمْل عشرة آلاف درهم، ومثل ذلك إلى كل عامل من عُمّال الدّولة ليُفَرّق على أهلها[٦٨].

وقد وَصَفَ القاضي النُّعْمَان طريقة الاحتفال بهذا الْختَان الجَمَاعي كما شاهده بنفسه في حاضرة الدولة الفاطمية بالمغرب، فَذَكَرَ أنّه لأجل هذه المناسبة نُصّبَتْ سرُادقات (خيَام) ضخمة بساحة القصر الخلافي، وكان الخليفة المعز يجلس داخلها لحُضُور مراسم الختَان، فَيَدْخُل الصّبيان المُرَاد خَتنهم ومعهم من يشاؤون من آبائهم وأُمّهَاتهم وخدمهم وعبيدهم، ومن أرادوا أنْ يُطَهّروه من عبيدهم. ويكون الخَتّانون جالسين على كراسي وأمامهم قَومٌ يُمْسكُون الصّبيان في حجورهم حتّى ختَانهم، ومعهم مَسَاحيق (الذّرَارات) التي تُنْثَر على مكان الختن لمنع نزول الدّم. كما يَرُشّون على رؤوس الصّبيان ووجوههم ماء الورد ليفيقوا مما اعتراهم من الألم والرّوْع. وكان أصحاب المْلاهي والألعاب المُضْحكَة يُلْهُونهم في أثناء عملية الختَان حتى يصرفوهم عن الألم والبُكَاء. وكان الصّبيان بعد ختَانهم يمرّون من أمام الخليفة لمنحهم الكُسْوَات والهبَات المالية -التي تختلف مقاديرها باختلاف مراتب الناس- ثم يُزَفّون إلى بيوتهم بصحبة بعض أصحاب الملاهي[٦٩].

وقد استمرت احتفالات الخَتن هذه لُمدّة شهر، كان يُخْتَنُ في كل يوم منها ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف صَبي، وتصل إلى اثني عشر ألف صَبي أحيانً. وقد جَرَى على ذلك جميع أهالي البلدان والأقاليم التي تتبع الخلافة الفاطمية بما فيها ليبيا. أنفقت الدولة خلالها ما لا يُحْصيه إلاّ من وقف عليه. ونَستعير لسَان القاضي النّعْمَان في وصفه الأجواء الاجتماعية التي خَلّفَتْهَا احتفالات الختَان هذه، بقوله: "وكانت أيّام هذا الشّهر أيّام أعياد ومَسرّات وأفراح وهبَات بكل وجه وجهة من مملكة أمير المؤمنين، من بَدو وحَضَر، وعَمَّهُم فضله، وتَبَينّ عليهم أثره، وارتفق به أغنياؤهم، وانتعش له فُقَراؤهم، ودخلت المْسرّة على

أهل كل بَيت منهم. وكان أثرٌ جميلٌ لم يَسْبقه إليه أحد قبله، ولا أظن أنّ أحدً يَتّسع له مثله. والحمد لله على ما أَوْلَى وَلِيَّهُ وأنعم به عليه"[٧٠].

ودعونا نَقف قليلً عند نَصّ القاضي النّعْمَان هذا، ولا سيّما تلك الجملة التي توضح انطباع الناس على بادرة الخليفة المعز وكرمه في هذا الختَان، وهي: "... وعَمَّهُم فضله، وتَبَيّنَ عليهم أثره ...". فإذا تَمَحّصْنَا فيها عرفنا المُغْزَى الذي هدف إليه المعز من وراء تلك الاحتفالات التي كَلّفَت الخزينة الفاطمية أموالً باهظة كانت مَحَلّ جَزَع وإشفاق القاضي النّعْمَان[٧١]. فلا شَكّ في أنّ مَرَامي المعز من ذلك العيد كانت أبعد من المظاهر الاحتفالية التي صاحبته، بل هدف به إلى اكتساب قُلُوب رَعيّته وشَدّها إليه، فالناس بطبيعة حالها تهفو قُلُوبها دائمً إلى من يَحنُّ عليها ويسأل عنها ويُشْبعُ بُطُونها، وهذا ما عمل عليه المعز في ذلك الاحتفال، فَنَتَائجه الاجتماعية تكون مساندة لدولته وتأييدً لسياسته التّوسعية ونشر المذهب الشّيعي. ويبدو أنّ المعز قد نجح في كسب رضا رعيته من خلال هذه المبادرة ويتضح ذلك من خلال نَصّ آخر أورده النّعْمَان يَصفُ فيه حال الناس بعد الختَان الجَمَاعي، بقوله: "... ذكروا ما كان من فضل أمير المؤمنين على عامة الناس، وما انتشر من الثّنَاء عليه في ذلك والدُّعَاء له على أَلْسُن العامة والمخالفين والمؤالفين"[٧٢].

٢/١-وسائل وطُرُق تَعَسّفيّة

سبق أن ذكرنا أنّ وسائل الفاطميين لدعوة الناس إلى مذهبهم في الأقاليم الخاضعة لهم أخذت تسير على خَطّين متوازيين مع بعضهما بعضً، وسائل سلميّة عن طريق الدعاية والدعوة بالترغيب والتحبيب، ووسائل تعسفية بالترّهيب والتّنكيل وتصل إلى القتل أيضً لمن رفض الدخول في مذهبهم ولم يَذعن لبدَع الشيعة وتطرفهم.

ومن خلال تتبعنا لتاريخ الدولة الفاطمية نجد أنّ معظم الأقاليم والبلدان التي خضعت للفاطميين لم يسلم أهلها -ولا سيّما علماؤها وفقهاؤها- من هذه السياسة بما في ذلك ليبيا، التي تعرض مالكيتها لما تعرض له غيرهم من تَعَسّف، حيث يُخبرنا التّجاني (ت: بعد سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م) -في رحلته التي نزل فيها بطرابلس، وفي أثناء سرده لبعض تاريخ المدينة وترجمته لأشهر علمائها- أنّ الفاطميين كانوا يقتلون كل من لم يمتثل لبدَعهم وضَلالاتهم، منها أنهم قتلوا بشرً كثيرين لم يلتزموا بصيغة أذان الصلاة التي فرضوها عليهم، وهي زيادة جملة: "حَيّ على خير العمل". فمن أسقطها من أذانه من أهل البلد سواء تَعَمُّدً أو نسيانً تَعَرّض للقتل[٧٣]. وكذلك صلاة الضُّحَى التي منعها الفاطميون، وكان الناس يُصَلّونها في مُدّة حكمهم خفْيَةً، فمن علموا به يُصَلّيها جَهَارَةً قَتَلوه. وقد حَكَى لنا التّجاني في ذلك قصة مَفَادُهَا: أنّ أحد عُمّال الفاطميين كان قد مَرّ برجل على شاطئ البحر يُصَلّي وقت الضُّحَى، فسأله عن صلاته، فذكر أنه كان جُنُبً فَلَمّا مَرّ بالبحر نزل واغتسل وقَضَى صلاة الصبح، فلم يقبل ذلك منه وأمر به فَأُلْقيَ في البحر إلى أنْ مات[٧٤].

وبطبيعة الحال كان أكثر من تعرض -من أهالي ليبيا- لتَعَسّف الفاطميين في الدعوة لمذهبهم هم علماء المالكية وفُقَهائها وقُضَاتها، فهم رُعَاةٌ لغيرهم وقُدْوَةٌ لعامة الناس في البلاد، فإنْ حدث وانصاعوا للفاطميين فإنهم يكونون بذلك مفتاحً لقلوب الناس لإدخالهم في التَّشَيّع. لذلك كان تركيز الفاطميين عليهم كبيرً، فكانوا هم في مقدمة من تَعرّضوا لوسائلهم التّعَسّفيّة، حيث كانوا في ضَنْك ومُعَاناة إزَاء ما يُفْرَضُ من رسوم شيعية في البلاد ولا يستطيعون منعها، ومن جَهر منهم بالرفض أو المنابذة تَعَرّض للإهانة والتّعذيب وتصل إلى القتل أيضً. ومن الذين تعرضوا لذلك على سبيل المثال لا الحصر أبو العبّاس بن بطريقة (ت: سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م) قاضي طرابلس في زمن الخليفة المهدي، وكان من الفُقَهاء العُلَماء الرّافضين للشيعة، وقد تَعَرّض للضرب والإهانة بأمر من قاضي إفريقية المُتَشَيّع محمد بن عمر المروذي[٧٥].

كذلك أبو عبد الله محمد بن إسحاق الجبلي قاضي برقة، الذي رفض أمر ابن كافي والي برقة الشّيعي بإعلان عيد الفطر والصّلاة في غير ميقاته، حيث قال له: "لا أَخْرُج ولا أُصَلّي ولا أُفْطُر في يوم من أيام رمضان ولو عُلّقْتُ بيَدي". فأرسله العامل إلى الخليفة الفاطمي بالقيروان، الذي قال له: "إمّا أن تَتّصل بنَا ونَعفو عنك أو نفعل بك ما قُلْت". فامتنع في الدخول في دعوته وقال له: "افعل ما شئت". فَنَصَبَ له صَارِيً، وعُلّقَ من يده في الشّمس حتى مات من العطش رحمة الله عليه سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م[٧٦].

بالإضافة إلى القاضي الأجل الصالح مالك بن سعيد بن مالك القرافي، الذي كان قاضيً على طرابلس، ثم ولاه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بمصر سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، وفي الخامس من ذي القعدة من سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م انتزعت منه المظالم، وقد أمره الحاكم أن يكتب سب الصحابة (ﷺ) على أبواب المساجد، فلم يكتب على المساجد إلاّ قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[٧٧]. فأمر الحاكم بضرب عنقه، فَضرُبَت في شهر ربيع الآخر من سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م، وكان -رحمة الله عليه- محمودً في ولايته عَفيفً عن أموال الناس لا يخاف في الله لَوْمَة لائم[٧٨].

وإزاء سياسة التّنكيل هذه نجد بعض قُضَاة المالكية وفُقَهائها وعُلَمائها في ليبيا لم يجدوا لهم مَلْجَأ إلا بالهجرة منها والسفر إلى مواطن أخرى يبدؤون فيها حياةً جديدةً هربً من ظلم الفاطميين، وكان من أشهرهم أبو جعفر أحمد بن نصر الدّاودي الأسدي، وهو من أئمة المالكية بالمغرب، كان بطرابلس الغرب وبها أصّلَ كتابه في شرح المُوَطّأ، وكان فقيهً متقنً مؤلفً مَجيدً، له حَظٌّ من اللّسان والحديث والنّظر، وله عدة مؤلفات أخرى منها النّامي في شرح المُوَطّأ، والواعي في الفقه، والنّصيحة في شرح البخاري، والإيضاح في الرد على القدرية، وغير ذلك[٧٩]. وقد انتقل الداودي من طرابلس إلى تلمْسَان واستقر بها إلى أن تُوُفّيّ سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م، وكان -رحمه الله- دائمً ما يُنْكرُ على مُعَاصريه من علماء القيروان سُكْنَاهم في مملكة بَني عُبَيد وبقاءهم بين أظهرهم، وكان يكاتبهم بالخروج والهجرة من مواطنهم التي تخضع لسَيطرة الفاطميين[٨٠].

لذلك لا نستغرب هجرة الكثير من العلماء المالكية في ليبيا في زمن حكم الفاطميين إلى مصر وبلاد المغرب وصقلية والأندلس وغيرها من البلاد الإسلامية، فانقطعت صلتهم بموطنهم الأصلي وإن ظَلّ أغلبهم يحتفظُ بنسبته القديمة إلى مدينته أو إقليمه، فَنَجدُ ألقاب الطّرابلسي والبرَقي والبرَنيقي والزّويلي والسرّتي والأجدابي منتشرة في الأقطار الإسلامية، وإن كان -والحق يقال- ليس كلهم هاجروا هربً من الفاطميين، فبعضهم رحل طلبً للعلم أو التجارة أو الشهرة أو غيرها من الأمور التي يسعى إليها بَني البشر.

والذين بَقوا في ليبيا من علماء المالكية وفقهائها كانوا مغلوبين على أمرهم لا حول لهم ولا قوة أمام تَعَسّف الفاطميين وبطشهم، وإنْ ظَلّوا على ثباتهم، فلم يُفَرّطوا في عقيدتهم وفي الوقت نفسه مستترين بمذهبهم، حيث لم يعد في إمكانهم الوفاء بواجباتهم الدينية في المساجد الجامعة التي هَيْمَنَ عليها الفاطميون، وأصبحت الجمعة تُصَلّ فيها على ضلالات الشيعة وبدَعهم. ومع ثبات نفوسهم على المالكية جيل بعد جيل ظَلّوا ينتظرون الوقت المناسب للجَهر بمذهبهم ومقارعة المذهب الشيعي ونبذه من حياتهم، وهذا ما بَرهنت عليه الأحداث في السّنين التالية.

ثانيًا: أوضاع مالكية ليبيا ورُدُود فعلهم تجاه السياسة الفاطمية الشّيعيّة

بعد أنْ أكملنا الحديث عن الوسائل التي اتّبعها الفاطميون والطرق التي استخدموها لنشر مذهبهم الشيعي وفرضه على الناس، لا ننكر أنّ الدعوة الشيعية والدعاية لها في ليبيا قد لاقت بعض الآذان المُصغية والقلوب المفتوحة، ولا سيما أنها تزامنت مع سيطرة سياسية وعسكرية كاملة للفاطميين، مما جعل لها مناصرين اعتنقوا المذهب الشيعي إمّا قَناعةً أو تملقً أو استفادة من النظام القائم. لهذا نسمع عن بعض المتشيعين من أهل البلد الذين خدموا القضية الفاطمية، من أمثال محمد بن سلاَّم بن سيار البرُقيّ الهمدانيّ، المتوفي سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م، الذي كان متفقهً على مذهب الشيعة[٨١]. وكذلك محمد بن الحسن بن أبي الدبس الطرابلسي، الذي كان قاضيً للشيعة على طرابلس قبل أن يُوَلّوه القضاء على دمياط وبلبيس والفرما وغيرها[٨٢]. وأيضً الخليل بن إسحاق الطرابلسي، الذي انحاز للفاطميين ضد أهل بلده (طرابلس)، وكان هو المُتوليّ تغريمهم وتعذيبهم في ثورتهم التي قُمعَتْ سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م[٨٣].

وهذه العَيّنة من المتشيعين الذين انضموا للفاطميين من أهل ليبيا لا يمثلون الغالبية الرافضة لهم، التي جَسّدَتها الثورات التي قامت ضدهم في الفترات الأولى من حكمهم للبلاد والتي أشرنا إليها في توطئة البحث، أو الثورات التالية في أواخر حكمهم التي سنعرج عليها في الصفحات القادمة، لذلك يمكننا القول إنّ كل ما حَصل عليه الفاطميون في ليبيا طيلة فترة حكمهم -سواء المباشر

أو غير المباشر- هو الإخضاع السياسي فقط، أما من حيث العقيدة والمذهب فلم يظفروا بشيء لدى الأغلبية، حيث إنّ أهل السنة في ليبيا بما فيهم المالكية كانوا قد عانوا ما عانوه هم وأهل المغرب كافّة من الفاطميين بما فرضوه عليهم من رسوم شيعيّة، ولا سيّما في المبادئ الفقهية وبجانب العبادات خاصة، ومطالبتهم بتطبيقها عملياً والتّنْكيل وقتل كل من يخالفها، مثل قطع صلاة التّراويح في شهر رمضان والأمر بصيام يومين قبله، وإسقاط عبارة: "الصّلاة خير من النّوم" في أذان صلاة الصبح، وزيادة عبارة: "حَيّ على خير العمل ومحمد وعلي خير البشر"[٨٤]. والجَهْر بالبَسْمَلة في الصّلاة، وزيادة الْقُنُوت في صلاة الجمعة في الرّكعة الثانية، وإبطال صلاة الضُّحَى، وزيادة تكبيرة خامسة في صلاة الجنازة، وتأخير الصّلَوات عن أوقاتها، إلى آخرها من بدَع الشّيعة وضلالاتهم التي يطول الحديث عنها[٨٥].

وأمام القَبضة العَسكريّة المُحْكَمَة للفاطميين على البلاد وقَسوتهم في التعامل مع المخالفين لهم في المذهب، كانت سُبُل مقاومة المالكية للدعوة الشيعية بطريقة عَلَنيّة شبه مُعْدَمَة، لذلك لجأوا إلى مقاومة من نوع آخر -كانوا قد استخدموها- تأمن لهم على أنفسهم من تنكيل الفاطميين وفي الوقت نفسه تُعَبّر عن رفضهم للمذهب الشيعي. وهذه المقاومة جاءت على شكل مقاطعة المساجد الفاطمية ولا سيّما في أيام الجُمُعَات، حيث إنّ المذهب الشيعي الرسمي كان يَتَجَلّى بقوة من خلال الأذان وخُطُب الجمعة[٨٦]، بالإضافة إلى دُرُوس الدّعاة للمذهب الشيعي. لذلك كان الكثير من المالكية يرفضون حُضُور الجمعة لعدم سماع الخطيب وهو يدعو للخليفة الفاطمي[٨٧]، فكان بعضهم إذا بلغ إلى المسجد قال سرًّ: "اللّهُمّ اشْهَدْ! اللّهُمّ اشْهَدْ!". ثم ينصرف فَيُصَلّي الظهر أربعً[٨٨]. وقد عَدّ الكثير من علماء المالكية الخُطَبَاء الذين يدعون للفاطميين خارجين عن السنة[٨٩]. ومن مالكية ليبيا الذين أدانوا بشدة الخُطَبَاء الذين كانوا يخطبون في الجوامع في زمن الشيعة أبو جعفر أحمد بن نصر الدّاودي سالف الذكر، الذي أَفْتَى بعدم صحّة صلاة الجمعة إذا كانت الخُطبة تتضمن الدعوة للفاطميين[٩٠].

وهكذا بفضل جُهُود علماء المالكية وفُقَهائها وغيرها من الأسباب ظَلّ المذهب المالكي ثابتً في نفوس أهالي ليبيا، حاضرً في حياتهم الاجتماعية، متواترً في أسلافهم جيلً بعد جيل، وكانوا في انتظار الوقت المناسب التي تسمح به الظروف السياسية للمجاهرة بمذهبهم قولً وفعلً وتطبيقً، وإعلان رفضهم للمذهب الشيعي واجتثاثه من حياتهم نهائيً. وقد تَسَهّلَت الظروف للمالكية تدريجيً بعد رحيل الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦١هـ/٩٧١م، وتولية بني زيري الصنهاجيين وُلَاةً عنهم في بلاد المغرب. فالزيريّون كانوا مدفوعين -بحكم الطاعة والتبعية للخلافة الفاطمية- بالدّعوة على المنابر للخلفاء الفاطميين الذين في مصر بالنّمَط نفسه الذي سارت عليه الخلافة الفاطمية إبّان وجودها في بلاد المغرب. وفي عصر بُلُكّين بن زيري (٣٦١-٣٧٣هـ/٩٧١-٩٨٣م) أول أُمَراء بني زيري الذي تَوَلّى حكم إفريقية بعد رحيل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي مباشرة، كان قد حرص على الاستمرار في الدعوة للمذهب الشّيعي، وعلى تهيئة المناخ الصالح لنَشر المذهب الشّيعي بين الناس، وقد اسْتَمَرّ هذا الحرص في عُصُور خلفائه الذين تَوَلّوا من بعده وإنْ كان على درجات متفاوتة[٩١].

بيد أنّ الشيء المؤكد هو أنّ عصر الزّيريّين تَميّز بالفُتُور في الولاء للمذهب الشّيعي، الذي بدأ تدريجيًّ إلى أنْ انتهى الأمر إلى المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٣هـ/١٠١٥-١٠٦١م)، الذي يُخبرنا عنه المؤرخون بأنه نشأ نشأة أهل السّنّة والجماعة على مذهب مالك والشيعة لا يعلمون بذلك، فكان أنْ حصلت مذبحة الشيعة في عصره، التي عُرفَت بـ "وقعة المشارقة"[٩٢]. وفيها انتفض أهالي القيروان وعامة الناس وقتلوا كل من يعتنق المذهب الشّيعي في المدينة، ووضعوا السّيفَ فيهم، فقتلوا منهم ما يزيد على الثلاثة آلاف نفر، لدرجة أن سُمّيَ المكان الذي قُتلوا فيه بـ"بركة الدّم"[٩٣]. وكان السّبب في تلك المذبحة حسب ما رَوَى ابن عذاري أنّ المعز بن باديس كان قد خرج في بعض الأعياد إلى المُصَلّى في زينته وحُشُوده، وهو غلام، فَكَبَا به فرسه، فقال عند ذلك على حسب تربيته السُّنّيّة: "أبو بكر وعمر"، وكأنه يستنجد بهما، فَسَمَعَهُ الرجال الشّيعة الذين كانوا في عسكره، فهاجموه محاولين قتله، ولكن تَصَدّى لهم عبيده ورجاله ومن كان يكتم

السُّنَّة من أهل القيروان ووضعوا السّيف في الشّيعة، ومنها بدأت المذبحة التي انتشرت في جميع نواحي إفريقية[٩٤]. وقد انتشرت عدوى قتل العامة للشيعة بعد هذه الحادثة، وخرجت من القيروان إلى المهدية وسائر البلاد، فَقُتِلُوا حيث وُجِدُوا وأُحْرِقُوا بالنّار فلم يُتْرَك أحدٌ منهم بمُدُن إفريقية إلاّ من هرب واختفى[٩٥].

فكانت تلك الوقعة فرصة سانحة لمالكية ليبيا لمجابهة أعمدة المذهب الشيعي ورجالاته في البلاد، وكانت طرابلس من المُدُن التي وصلت إليها موجة القتل، وكان الذي تَوَلّى أمر قيادة الأهالي فيها وقتلهم للشيعة الفقيه والعالم الطرابلسي أبا الحسن علي بن المُنَمّر(م: سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م) ، الذي يُعَدّ أول من أظهر السُّنَّة في طرابلس جَرّاء هذه الحادثة، وقطع من الأذان "حَيّ على خَير العمل"، وأذّن في ذلك اليوم أذان أهل السُّنَّة بنفسه، كما كان أول من أقام للناس بطرابلس صلاة القيام، وكان رسم هذه الصلاة قد انْمَحَى من إفريقية في عصر الفاطميين كما أسلفنا الذكر، فَكان الشيخ ابن المُنَمّر أول من أحيا بطرابلس رسمها، وقَدّمَ لها أبو مسلم مؤمن بن فرج الهواري الطّرابلسي (ت: سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م)، فَصَلاّها في الجامع الأعظم ولم تكن قبل ذلك قد صُلّيَت فيه لأنه من تشييد الفاطميين كما تقدم. وأيضً ابن المُنَمّر هو أول من أطلق للناس صلاة الضُّحَى جَهَارً ولم يكن أحد في زمن الفاطميين يُصَلّيها إلاّ خفْيَةً خوفً من القتل[٩٦].

وهكذا كان لابن المُنَمّر الدور الأكبر في مقاومة المذهب الشيعي في عصره، مُتَوليّ قيادة الثورة الشعبية لأهالي طرابلس ضد الفاطميين التي احتَلّ فيها الحرص على العقيدة المقام الأول، فكان له الفضل هو ومن معه من المالكية في رَدّ ما طَمَسَهُ الفاطميّون من معالم أهل السّنّة في طرابلس بإعادة الشّعائر التي منعوها وإلغاء الشّعائر والبدَع الشّيعيّة[٩٧].

ومن قبل أنْ تقع وقعة المشارقة بفترة كان لأهالي برقة دورهم أيضً في مقاومة الشيعة، وذلك في انضمامهم للثورة التي قام بها الوليد بن هشام المعروف بأبي رَكْوَة سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م، ضدّ الحكم الفاطمي في برقة ومصر[٩٨]، حيث التَفّ عليه أهالي برقة من قبيلة بَني قُرّة العربية مع قبائل البرْبَر من لواتة ومزاتة وزناته وغيرها. وعلى الرغم من أنّ ثورة أبي ركوة كانت ثورة سياسية في المقام الأول وليست دينية، فقد كان طامعً في السلطة، وكان هدفه الأول هو انتزاع الحكم من الفاطميين والاستيلاء عليه، إلا أنه في الوقت نفسه كان قد عَمِلَ على القضاء على المذهب الشيعي في برقة وأظهر فيها مذهبه مذهب السّنة، وهو المذهب الأصلي لأهالي الإقليم. وقد نالت خطوته هذه مباركة أهالي برقة المتعطشين للخروج من ربقة الخضوع للحكم الفاطمي الشيعي، لذلك قاموا بمبايعته وخَاطبوه بالإمامة، وسُمّيَ بـ "أمير المؤمنين الناصر لدين الله"، وضرُبَت السّكّة باسمه على ذلك، وأقام الدعوة لنفسه[٩٩].

ومن خلال ما جَرَى في طرابلس من وقعة المشارقة، وفي برقة من اندلاع ثورة أبي ركوة، نجد أن غالبية أهالي ليبيا خلال العصر الفاطمي كانوا قد ظَلّوا على سُنّيتهم ولم تتمكن منهم الدّعوة الشّيعية على الرغم من طول مُدّة فرضها عليهم، وقد ظَلّ المذهب المالكي راسخً في قلوبهم إلى جانب القليل منهم على المذهب الإباضي، فكانوا لذلك يَتَحَيّنون الفُرَص للخروج عن الفاطميين ونَبْذ مذهبهم ومَحْو شعائرهم وإلغاء معتقداتهم.

وقد واتَت هذه الفرصة أخيرً لمالكية ليبيا للقضاء على المذهب الشيعي نهائيً، بعد توتر العلاقات السياسية بين بَني زيري في إفريقية والخلافة الفاطمية في مصر، التي أخذت في التَّهَلْهُل تدريجيً إلى أنْ انتهت بالانفصال. ففي سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، أَمَرَ والي بلاد المغرب المعز بن باديس بقطع الدّعوة عن الشّيعة الفاطميين ولعنهم في الْخُطَب وخَلَعَهم، فَقُطِعَت الخُطبة عن الخليفة الفاطمي في مصر آنذاك المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م) من مَنابر المساجد في إفريقية، وأُحْرِقَت رَايَاتُهُ وبُنُودُه[١٠٠]. كما أمر المعزّ في سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩، بتبديل السّكّة، ومَحْو أسماء الخلفاء الفاطميين من العملة الموجودة وإعادة سَكّها من جديد، وأشاع في رَعيّته بزوال أسمائهم من جميع الدّنانير والدّراهم في جميع الولايات التابعة له بما فيها طرابلس وبرقة، وذلك بعد تداولها منذ سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م، لمدة خمس وأربعين ومائة سنة هجرية[١٠١]. كما نَادَى مُنَاديه في الناس بأنّه: "من تَصرّف بمال عليه أسماء بَني عُبَيْد[١٠٢] نَالَتْهُ العُقُوبة الشّديدة"[١٠٣]. وفي سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م، تَمَخّضَ انفصال المعز عن تبعية الفاطميين بالانضواء تحت عباءة

الخلافة العبّاسية، فَصَدَرَت أوامره بلبس السّوَاد[١٠٤]، والخُطبة للخليفة العبّاسي أبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣٠-١٠٧٤م) على منبرَ جامع القيروان، وفي المقابل "أَخْزَى بَني عُبَيد الشّيعة ولَعَنَهُم"[١٠٥].

فَنَالَت خُطُوات المعز هذه رضَا أهالي ليبيا من المالكية الذين عانوا ما عانوه من الشيعة لمدة طويلة من الزمن، وكانت أنفسهم تَتَشَوّق لمثل هذه اللّحظات، فاستحسن عامة الناس في طرابلس ما قام به المعز من إسقاط الحكم الفاطمي والقضاء على المذهب الشيعي وفي المقابل إرجاع المذهب السّنّي والاستظلال بالخلافة العباسية، فالّذي جَرَى في إفريقية بهذا الخُصُوص جَرَى في طرابلس لكونها جزءً منها. وكذلك الأمر نفسه في برقة التي كانت في تلك الفترة تُعَدّ خارج نطاق السُّلْطَتَين الشرّعيتين سواء في إفريقية أو مصر، متمتعةً بحكم شبه استقلالي تحت نفوذ قبيلة بَني قُرّة، فنجد شيخها جَبَارة بن مختار يُرَحّب بدعوة المعز بن باديس لقطع الخُطبة عن الفاطميين في إفريقية والمغرب، فَيُرسلُ إليه مكاتبة في القيروان تُفيد بالسّمع والطاعة، ويخبره فيها بأنه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التي كان يُدْعَى منها للفاطميين، كما أحرقوا راياتهم، وتَبرّؤُوا منهم، ولعَنُوهم على منابرهم، وفي الوقت نفسه دعوا للخليفة القائم بأمر الله العبّاسي[١٠٦].

وبهذه الأحداث والترّتيبات التي جَرَتْ في بلاد المغرب عامةً وما تَمَخَّضَ عنها من رُدود فعل في ليبيا خاصةً، انتهى الحكم الفاطمي السياسي والعسكري في ليبيا تمامً، وانتهى معه المذهب الشيعي وزَالَ ولله الحمد، بفضل ما تمتع به أغلبية أهل البلاد -من المالكية- من حسن إيمان وثبات عقيدة وقوة مذهب، جعلتهم لا يتقبلون المذهب الشيعي ويتحينون الفرص لمقاومته والقضاء عليه، وعلى دُعَاته ومُنَاصريه ومُتَشيّعيه، والعمل على مَحْو آثار دعوتهم التي طالت البلاد ورَتُعَتْ فيها لحوالي قرن ونصف من الزمان.

ثالثًا: أهم أسباب صُمُود المذهب المالكي في ليبيا أمام المذهب الشّيعي الفاطمي

مما لا شَكّ فيه أنه كانت هناك أسباب وعوامل ساعدت على عدم تَأثّر معظم أهالي ليبيا بالدّعوة الشّيعية الفاطمية، وفي المقابل ثبات نفوسهم على المذهب السُّنّي وبالخُصُوص المالكي، وعدم تزعزع إيمانهم به ونفورهم مما عداه، وسنحاول في هذه الجزئية حصر أهم هذه الأسباب والحديث عنها، وهي كالآتي:

١- من الأسباب الرئيسة التي جعلت عامة الليبيين ينفرون من الفاطميين ومن مذهبهم ويكنون لهم العَداوة والبَغضاء طوال مدة حكمهم هو طريقة الحكم السيئة التي طَبّقَهَا وُلاَة الفاطميين وعُمّالهم على الأقاليم الليبية بمجرد تَوَلّيهم أمرها. حيث اتّسَمت بالمغالاة في القسوة والعنف الشديد الذي لا يترك مجالً للمَحَبّة أو القَبُول، ولا سيّما أنها كانت مخالفة للسياسة التي أَكّدَها الخليفة المهدي في سبيل دعوة الناس إلى المذهب الشيعي، وهي الترغيب والتحبيب أولً وبعدها استخدام الشدة والعنف في حالة الرفض. فنجد أحدهم وهو حباسة بن يوسف قد لجأ إلى العنف مباشرة مع أهالي إقليم برقة بدون استخدام أسلوب الدعوة والدعاية لتحبيبهم في الحكم الفاطمي ومذهبهم الشيعي. فَعَلَى الرغم من أن سيطرته على مُدُن سرت وأجدابية وبرقة كانت قد أُنجزت بالأمان ومن غير قتال في سنة٣٠١هـ/٩١٣م، إلا أنه كان شديد الوطأة عليها، حيث يخبرنا ابن عذاري أنه: "كُلّمَا دخل مدينة قتل أهلها وأخذ أموالهم وعَاثَ فيهم"[١٠٧].

وكان عُنْفُهُ الشّديد على أهالي مدينة برقة بالتّحديد مُبَالَغً فيه ومن غير سبب وليس له داع، فقد أخذ في خلق الْعلَل للتنكيل بالمُيَسرّين من أهل المدينة واستباحة أموالهم، لدرجة أنّه أخذ جماعة منهم كانوا يلعبون بالحَمَام، فأضرم لهم نارً وأجلسهم حَوَالَيْهَا وأمر أن تُقَطّع لُحُومهم وتُشْوَى ثم يُطْعمُوها لهم، وبعد ذلك قَذَفَهم في النار، وقال: "إن هذه الحمام كانت تأتيهم بالأخبار من قبَل بَني العبّاس"[١٠٨]. كما نَادَى مُنَاديه في برقة "من أراد العَطَاء والرّزْقَ الواسعَ فَلْيَأْت"[١٠٩]. فَسَجّل عنده جماعة من الأهالي، فأمر العرفاء من كتامة بأن يعرفوهم بأعيانهم، ويرقب كل واحد منهم رجلً من أولئك المُسَجّلين عنده، ثم أمرهم أن يأتوا في اليوم الثاني لأخذ الأرزاق. فَلَمّا حضروا قتلهم جميعً وكانوا نحوً من ألف رجل، ثم أمر بجمع جثثهم ووضع عليها كرسيًّ وجلس فوقه، ثم أدخل وجوه أهل البلد عليه في حاله هذا، فنظروا إلى ما هَالَهُم من كثرة القَتْلَى، فَمَاتَ منهم ثلاثة من الخوف

والرّعب على حسب ما ذكر ابن عذاري. ولمّا مَثُلَ أهل البلد بين يديه سَبَّهم وقال لهم: "إن لم تحضروني غداً مائة ألف مثقال قتلتكم أجمعين، فأحضروه إيّاه"[١١٠].

ومن جَرّاء تجاوز حباسة حدوده في العنف المفرط الذي عامل به أهالي برقة، مخالفاً بذلك سياسة الخليفة المهدي في الدعوة كما أسلفنا، الأمر الذي جعل أهالي برقة يكتبون إلى المهدي في مقر حكمه في إفريقية يشتكون إليه ما فعله فيهم حُبَاسة من قَتْل رجالهم وسَبْي نسائهم وأخذ أموالهم، فكانت شكواهم محلّ اعتذار لدى المهدي، ينفي فيه مسؤوليته عَمّا قام به حباسة، حالفاً بأنه ما أمر بشيء مما ذكروه، وتدعيماً لقوله كتب إلى حباسة بتركهم والرّحيل عنهم[١١١]. كما تَعَرّضَ أهالي برقة بعدها للتنكيل والقتل في مخالفتهم للفاطميين سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م[١١٢]، التي أخضعها الفاطميّون بعد حصار للمدينة لمدة ثمانية عشر شهرً، حتى "أفنت الحرب أكثر أهلها"[١١٣]، تلاها انتقام قائد حملة الإخضاع -وعاملها الجديد- من أهل برقة بأخذ أموالهم وحرق جماعة منهم بالنّار، وإرسال آخرين إلى الخليفة المهدي في مقر حكمه فأمر بقتلهم[١١٤].

ومن غير شَكّ أنّ هذا التّنكيل الشّديد الذي تَعَرّض له أهالي برقة من الفاطميين مرتين متواليتين كان قد خَلّفَ لديهم كراهية شديدة من أهلها للفاطميين ومذهبهم الشيعي، وقد استمرت هذه الكراهية متوارثة في أهلها جيلً بعد جيل، وقد تجلت في عدّة حوادث من ضمنها اغتيالهم لشاعر الفاطميين الشهير ابن هانئ الأندلسي، الذي اشتهر بقصائده التي تمدح الفاطميين وتدعو لمذهبهم وترفع من قدر خلفائهم وتجعلهم في مصاف الآلهة. وقد أورد لنا بعض المؤرخين[١١٥] رواية لمقتل ابن هانئ في برقة -عند نزوله بها سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م وهو في طريقه للّحَاق بالخليفة المعز لدين الله بمصر- وكأنّه من جَرّاء حادثة سُكر وعَربدة بعد ليالي أُنْس كان قد قضاها الشاعر مع بعض رفقائه في المدينة، ولكن الأقرب للحقيقة أنه قُتِلَ عَمْدَنً وعن سبق إصرار وتَرَصُّد من بعض أهل برقة، تعبيرً عن كراهيتهم للفاطميين -باغتيال شاعرهم المُفَضّل الذي كان يُرَوّج بشعره محامد خلفائهم وقداسة الإمامة الفاطمية الإسماعيلية- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى انتقامً من ابن هانئ في شخصه لقصيدة كان قد ألقاها في والي برقة الفاطمي أفلح الناشب (٣٤٢- بعد سنة ٣٦٩هـ/٩٦٣- بعد سنة ٩٧٩م) يمتدحه فيها، ويمتدح ما فعله بالقضاء على كل من كان يعارض الخليفة الفاطمي من أهالي برقة سواء من البربر أو العرب، ولا سيما تنكيله بقبيلة بَني قُرّة العربية القاطنة في إقليم برقة إلى ما شرقه[١١٦]. وكان قتل أهالي بَرقة لابن هانئ ضربة موجعة للخليفة الفاطمي المعز لدين، الذي لما بلغه خبر وفاته وهو بمصر تَأَسّفَ عليه كثيرً وقال: "هذا الرجل كُنّا نَرجو أنْ نُفَاخرَ به شُعَراء المشرق فلم يُقَدّر لنا ذلك"[١١٧].

وما تَعَرّضَ له أهالي برقة من قَسوة ولاتهم الفاطميين وعنفهم كان قد تعرض له أهالي طرابلس من قبلهم، سواء في ثورتهم الأولى على الفاطميين سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م، التي جُوبهَت بالتّنكيل الشّديد، حيث قَتَلَ قائد الفاطميين الكثير من الأهالي، ونَكّل بالكثير وبعث برؤوس كثيرة وآذان مقطوعة لمن قتلهم، فَنُصّبت برَقّادة[١١٨]. أو ما جَرَى لهم بعدها من اضطهاد والي المدينة ماكنون بن ضبارة الألجائي، الذي سار مع الأهالي سياسة التّطاول في الحكم، وبَسَطَ أيدي أبناء عمومته من كتامة في أموال الناس وممتلكاتهم وحرماتهم أيضً. مما أثار حفيظة أهالي طرابلس فثاروا عليه سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م، إلا أن المهدي تمكن من إخضاعهم بعد حصَار المدينة -لمدة ستة أشهر[١١٩]- حتى أكل أهلها المَيتَةَ من الجوع[١٢٠].

ومما لا شَكّ فيه أنّ قسوة هؤلاء الولاة والعُمّال الشديدة وإجرامهم مع أهالي ليبيا كانت سببً من أسباب فشل الدعوة الشيعية الفاطمية فيها، فمن المعروف أنّ قُلُوب الناس تهفو دائما لمن يَعتني بها ويهتم بمطالبها ويحقق رغباتها، وهذا ما فقده معظم أهالي ليبيا من ولاتهم الفاطميين في أهم مراحل الدعوة الفاطمية (بداية قيام الدولة)، مما جعلهم لا يتقبلون حكمهم ويرفضون مذهبهم ويَظُلّون على سُنّيّتهم ومالكيّتهم.

٢- تُعَدّ أرض ليبيا إحدى المراكز الرئيسة التي انطلق منها المذهب المالكي إلى الأقطار المغربية الأخرى، فقد خرج منها أول علماء المالكية ببلاد المغرب، وهو علي بن زياد العبسي، الإمام الثقة المتعبد العالم الذي لم يكن بإفريقية مثله. وهو في الأصل من طرابلس الغرب وإن كان قد انتقل إلى مدينة تونس وبَقيَ فيها إلى أنْ تُوُفّيَ سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م. وقد كان من أكابر أصحاب الإمام مالك بن أنس[١٢١]، وعنه أخذ ورَوَى كتاب المُوَطّأ، وكتبً أخرى

هي: البُيُوع والنّكَاح والطّلاق. وهو أول من أدخل المُوَطّأ إلى بلاد المغرب، ومنه سمع كبار علماء المالكيّة مثل البهلول بن راشد (ت: سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م)، وأسد بن الفرات (ت: سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م)، والإمام سحنون (ت: سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، وغيرهم[١٢٢].

٣- اتّسَاع مصادر المذهب المالكي وقدرة استيعابه لَمسيرة الحياة التّطوريّة، فهو إلى جانب اعتماده الكتاب والسّنّة يعتمد أيضً على الإجماع وهو ما أعطاه الاتّساع والتوثيق. وكان المذهب المالكي -ولا يزال- يتناسب وبَسَاطة طبيعة أهالي ليبيا قديمً وحديثً، ويَتَماشَىَ مع بيئتهم شبه الصّحْرَاويّة، لذلك لاَقَى قَبُولً ومُسَاندة شعبية منهم طوال العُصُور الإسلامية، أدّت إلى حمايته من التّيّارات المضادة، وأعطته الثّبات والاستمرارية حتى أصبح جزءً من التّراث الحضاري لليبيا[١٢٣].

٤- إنّ الموقع الاستراتيجي لليبيا الذي يتوسط بُلْدَان المشرق الإسلامي ومَغربه، ومرور علماء المالكيّة خاصة مُشرّقين أو مُغَرّبين، في ترحالهم وطريقهم سواء ذهابً للحج والعودة منه أو طلبً للعلم أو التجارة، فكل تلك الرحلات ومن فيها من العُلماء والفُقهاء أعطت للمذهب المالكي الاستمرار في ليبيا والتّرسيخ، نتيجةً للمناقشات العلمية والدّروس التي كان يُلْقيها أولئك العلماء الذين مَرّوا بها أو أقاموا فيها لفترة من الزمن[١٢٤]، وليس أدَلّ على فوائد الموقع الجغرافي لليبيا وتأثيره على التحصيل العلمي لأبنائها، في أنّ أشهر العلماء الذين أنجبتهم ليبيا -وتحديدً طرابلس- خلال العصور الإسلامية الوسطى، الذي ذاع صيته العلمي إلى خارجها في الأقطار الإسلامية الأخرى، كان قد حصل على علمه الوفير بمن كان يقابله من العلماء الوافدين على مدينته طرابلس والجلوس معهم والأخذ منهم دون أن يكون له رحلة خارجها.

وهذا العالم هو الإمام الفقيه أبو إسحاق إبراهيم ابن الأجدابي اللّواتي الطرابلسي (ت: بعد سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م)، الذي كان معاصرً للفاطميين، وهو من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم كلامً وفقهً ونحوً ولُغَةً وعروضً ونظمً ونثرً، وله تآليف كثيرة وأسئلة مفيدة في الفقه وغيره لا يسع المجال هنا لذكرها، وإن كان أكثرها شُهرةً وتداولً ومنفعةً إلى يومنا هذا كتابه كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في اللغة. وقد أشاد الرحالة التّجاني به وبمؤلفاته وبطريقة تحصيله العلمي ذاكرً: "وكَفَى بهذا الرجل المعظم القدر فخرً لهذا القطر ولم تكن له رحلة عن بَلد طرابلس إلى غيرها، وقد سُئلَ أنّى لك هذا العلم ولم ترتحل، فقال: اكتسبته من بَابَي هوارة وزناتة. وهما بابان من أبواب البلد نُسبَا إلى من نزل بهما في أول الزمان، يُشير أنه إنما استفاد ما استفاد من العلم بلقاء من يَفدُ على طرابلس فَيَدْخُلَ من هَذَين البَابَيْنْ من المُشرّقين والمُغَرّبين، وكان له اعتناء بلقَاء الوفود والقيام بضيافتهم"[١٢٥].

ومما سبق نجد أنّ ليبيا كانت مَحَطّةً للعلماء المالكية من الأقطار المختلفة ولا سيما من المغاربة، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر -وكان من أشهر من نزل ليبيا واستوطنها لمدة من الزمن- الإمام سحنون بن سعيد سالف الذكر، الذي أسهم في نشر المذهب المالكي في بُلدان المغرب الإسلامي وحَفظَهُ في مُدَوّنته الشّهيرة. وكان قد قَدمَ إلى إقليم برقة سنة ١٩١هـ/٨٠٦م، ونزل مدينة أجدابية، وفيها سمع منه أهلها وأخذوا العلم[١٢٦]. ثم انتقل بعدها إلى طرابلس واتخذها مُقَامً له لفترة من الزّمن، تَلَقّى خلالها العلم على يديه الكثير من طُلاّبها[١٢٧]، وقد أشاد الإمام سحنون بما شاهده في طرابلس من فضائل طلبة العلم ورجال المالكية فيها، حيث قال فيهم عندما سُئلَ بعد عودته من الحَجّ من رأيت من الصالحين فيها، فقال: "لقد لَقيتُ رجالً ما الفُضَيْل بن عياض[١٢٨] بأفضل منهم"[١٢٩].

٥- إنّ الله سَخّرَ للمذهب المالكيّ في ليبيا -إلى جانب علماء المالكية المارّينَ بها- عُلَماءَ مَحَليّين من أبنائها، كان لهم الفضل في تَقْويَة وُجُود هذا المذهب وانتشاره وتثبيته في قلوب الناس من خلال دروسهم التي يُلْقُونها في المساجد وحلقاتهم العلميّة التي يعقدونها لطلابهم، بالإضافة إلى مؤلفاتهم عن الفقه المالكي وغيره، التي انتشرت بين الناس على أرض ليبيا وتَعَدّتها إلى الأقطار الأخرى من المشرق والمغرب. فإلى جانب أبي الحسن علي بن المُنَمّر -قائد وقعة المشارقة في طرابلس- صاحب كتاب الكافي في الفرائض، نذكر من هؤلاء العلماء والفقهاء على سبيل المثال: محمد بن معاوية الحَضرْميّ الطرّابلسيّ، الذي كان معاصرً للإمام مالك ومنه سمع مُوَطّأه[١٣٠]. وكذلك أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن بن حَبيب المعروف بالقَطّان، وُلدَ سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م، وكان إمامً عالمً فقيهً

حافظاً، من الفقهاء المعدودين، والأئمة المشهورين، يُحْسنُ الكلام في الفقه على مذهب مالك وأصحابه، وُليّ قضاء طرابلس فَنَفّذَ الحُقُوق وأخذها للضعيف من القوي، وكان من الذين رَسّخوا المذهب المالكي في طرابلس، وكانت له مؤلفات كثيرة من أهمها كتابه أحكام القرآن في اثني عشر جزءً. تُوُفّيّ رحمه الله بذي القعدة سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م[١٣١].

ونختتم حديثنا عن العلماء المالكيين من أبناء الإقليمين بأبي الحسن علي بن أحمد بن زكريّا بن الخطيب المعروف بابن زكرون الطّرابلسي. كان رجلً صالحً مُتَعَبّدً ناسكً، ذا فضل وعبادة وعَقل رَصين، له مؤلفات كثيرة في الفقه والفرائض والشرّوط والرّقائق، إلى جانب مؤلفاته في الرجال والحديث[١٣٢]. وقد كان لابن زكرون وغيره من علماء عصره فَضْلٌ كَبيرٌ في مجابهة المذهب الشّيعي في طرابلس، من خلال دورهم الذي قاموا به في المساجد التي لم تتوقف عن أداء مهمتها في هذا الخصوص[١٣٣]، لا سيّما ابن زكرون الذي كان أهل طرابلس يُعَظّمُونه وينتفعون به، لأنه كان يُعَلّمهم الفقه المالكي والحديث والنُّسُك وغيره. تُوُفّيّ رحمة الله عليه سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م[١٣٤].

ويكفي لتبْيَان أصالة علماء مالكية ليبيا التّدَبُّرَ في شهادة الإمام سحنون في حَقّهم التي ذكرناها آنفً، وأيضً التَّمَعُّنَ في شهادته الأخرى -التي تدل على نضوج علمهم وتقواهم وزهدهم- وهي التي جاءت نقلً عن الفقيه المالكيّ جبلّة بن حمود الصّدفي، حين قال: "سَمَعْتُ سحنون بن سعيد يقول: كان بإفريقيّة رجال بعضهم بالقيروان وتونس وأطرابلس، وذكر من فضلهم وما رأى منهم، فقال: لو قُرنوا إلى مالك بن دينار[١٣٥] لَسَاووه"[١٣٦]. ولوُجُود مثل هؤلاء العلماء الرجال داخل ليبيا فترة الحكم الفاطمي، وعدم هجرتهم منها زمن اشتطاط الدعوة الشيعية فيها، وبقائهم بين ظَهْرَانَي الأهالي من المسلمين –ولا سيما من المالكية- كان تثبيتً لعامة الناس على الإسلام وبَقيّة صالحة للإيمان، فلو خرج العلماء كلهم بسبب اضطهاد الشيعة لما بَقيَ فيها من العامة آلاف الآلاف، فَعُلَمَاء المالكية وفقهائها رَجّحُوا خير الشرّين، وكان لترجيحهم فَضلٌ في تثبيت أفئدة الناس على المالكية، والله أعلم[١٣٧].

وفي الختام، هذه هي أهم الأسباب التي ثَبّتَتْ أغلب أهالي ليبيا -بخلاف الإباضية منهم- على المذهب المالكيّ من أهل السّنّة والجماعة ضد الدعوة الشّيعية الفاطمية. ومن المؤكد أنه كانت هناك أسبابٌ أخرى فرعية ساعدتهم على ذلك، تحتاج منّا إلى المزيد من البحث والدراسة والتمحيص والتّحليل.

خَاتمَةٌ

تتبعنَا من خلال بحثنا هذا قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ثم تَوَسّعُهَا بعد ذلك وسيطرتها على الأقاليم والمُدُن الليبية، التي كانت تمثل أهمية كبرى لمشروع الفاطميين الذي يهدف للوصول إلى مصر ومنها السيطرة على كل العالم الإسلامي، وجعله يُدين بالمذهب الشيعي. كما تحدثنا أيضً عن الوسائل التي استخدمها الفاطميون لمحاولة نشر دعوتهم الشيعية في ليبيا، التي كانت تسير على خَطّين متوازيين؛ وسائل سلْميَّة عن طريق الدّعاية والدّعوة بالترّغيب والتّحبيب، ووسائل تَعَسّفيّة عن طريق الترّهيب والتّنكيل والقتل لمن يرفض الدعوة. ثم عَرَّجنا الحديث لتوضيح أوضاع مَالكيَّة ليبيا خلال حكم الفاطميين ورُدود فعلهم تجاه سياستهم الشيعية. واختتمنا البحث بذكر أهم أسباب صُمُود المذهب المالكي في ليبيا أمام المذهب الشّيعي الفاطمي.

نتائج الدراسة

ومن خلال هذه الموضوعات وسرَديّاتها توصلنا إلى عدة نتائج يمكن اختزالها في النقاط الآتية:

- لم تكن أرض ليبيا تمثل أهمية جغرافية واستراتيجية لمشروع الفاطميين العسكري فقط، بل كانت تمثل لهم أهمية كبيرة من الناحية المذهبية العَقَديّة، فَضَمَان تَشَيّع أهل ليبيا هو ضَمَان لخضوعها المستمر، وبالتالي فهو ضمان لبقاء الدولة الفاطمية في بلاد المغرب واستمرار ارتباطها بمصر، وذلك لما كان لليبيا من أهمية جغرافية واستراتيجية في المنطقة، فهي بمثابة العَصب الحيوي الذي كان ولايزال يربط بين القطرين: المَشْرْقيّ والمَغْربيّ. لذلك اعْتَنَى الفاطميون بالدعوة الشيعية فيها، وقد ظَهَرَ ذلك بوضوح في اعتنائهم بتشييد المساجد الفاطمية في معظم المُدُن الرئيسة في ليبيا واتخاذها مراكزَ للدعوة والدعاية الشيعية. وقد زاد من أهمية الدّعوة الشيعية في ليبيا شُخُوص الدُّعَاة الذين أرسلهم الفاطميون لممارسة عملهم الدَّعَوي فيها، فهم يُمثّلون أسماء مُضيئة وعلامات بارزة في تاريخ الدولة الفاطمية ورجَالاَتها.
- على الرّغم من اهتمام الفاطميين بأمر الدعوة الشيعية في ليبيا إلا أنها لم تكن ذاتَ جَدْوَى في نُفُوس أهاليها، حيث إنّ كل ما حَصل عليه الفاطميون من أهالي ليبيا طيلة فترة حكمهم -سواء المباشر أو غير المباشر- هو الإخضاع السياسي فقط، الذي جاء عبر القمع والتنكيل والقتل، أمّا من حيث العقيدة والمذهب فلم يَظفروا بشيء لَدَى أغلبيتهم، الذين ظَلّوا على مَالكيّتهم ولله الحمد.
- من خلال تباين مواقف علماء المالكية الليبيين في رفضهم للفاطميين ودعوتهم الشيعية، التي كانت ما بين الرحيل والهجرة أو المكوث والمقاطعة، فمن وجهة نظرنا المتواضعة أنّ من أهم الأسباب التي جعلت الدعوة الشيعية تفشل في ليبيا وفي الوقت نفسه ثبات المذهب المالكي وصُمُوده فيها، هو عُلَمَاء المالكية وفُقَهَاؤها الذين ظَلّوا في البلاد وصَبروا على اضطهاد الفاطميين وقمعهم الفكري، فكان لثباتهم على الحق وصمودهم وعدم انصياعهم للباطل أثره على عامة الناس فيها، الذين اتّبعوا -بطبيعة الحال- قُدْواتهم في الدين والدنيا، فَصَبروا لصَبرهم وثبتوا لثباتهم وتَقَوّوا بقوتهم، والله أعلم بعبَاده المسلمين.

الاحالات المرجعية:

(١) النَّوبَختي، الحسن بن موسى وسعد بن عبد الله القُمِّي: **كتاب فِرَق الشيعة**، حقّقَهُ وصَحّح نصوصه وعَلّق عليه وقدّم له بدراسة وافية عبد المنعم الحفني، القاهرة، دار الرشاد، ط١، ١٩٩٢م، ص٧٨.

(٢) العقّاد، عباس محمود: **فاطمة الزّهراء والفاطميُّون**، القاهرة، نهضة مصر، ط٧، ٢٠٠٨م، ص٦١.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: **تاريخ ابن خلدون المُسَمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأعظم**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠م، ٤/٤٧. كذلك المقريزي، تَقيّ الدين أحمد بن علي: **اتّعاظ الحُنَفَا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلَفَا**، تحقيق جمال الدين الشَّيَّال، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط٢، ١٩٩٦م، ١/٦٥-٦٦.

(٤) **الْمَهْدِيّة**: بالفتح ثم السّكون. اختطها الخليفة المهدي وإليه تُنسب، قيل شرع في بنائها سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م، وأكمل سورها سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م، وانتقل إليها سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م، وهي جزيرة على ساحل البحر المتوسط، متصلة بالبرّ كهيأة كف متصلة بزند، عليها سور عالٍ محكم كأفضل ما يكون، وأبواب من الحديد المصمت تأنق المهدي في عملها. وبعد أن أحكم الخليفة المهدي تحصيناتها قال: **"اليوم آمنت على الفاطميات"**، يعني بناته = ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله: معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧م، مج٥/٢٠٣-٢٣١.

(٥) **المَنصُوريّة**: أو مدينة صَبْرَة، مُتّصلة بالقيروان، بَنَاها الخليفة الفاطمي المنصور بنصر الله سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م، واستوطنها وسَمّاها المنصوريّة، وبقيت من بعده منزلً للولاة إلى حين خرابها. وقد نقل الخليفة المعز إليها -عندما تَوَلىّ الأمر- أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات، وكان لها خمسة أبواب؛ الباب القِبلي، والباب الشّرقي، وباب زويلة، وباب كتامة وهو جوفي، وباب الفتوح ومنه كانت تخرج الجيوش = البَكْريّ، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز: **الْمُغرِبُ في ذكر بلاد إفريقية والْمَغرب** (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك)، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د.ت. ص٢٥.

(٦) بازامه، محمد مصطفى: **واحات الجنوب البَرقي بين الأسطورة والتاريخ**، بيروت، دار الحوار الثقافي العربي الأوروبي، ط١، ١٩٩٤م، ص١٩٢.

(٧) ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، ٤/٤٧. وورد اسمه أيضً: ماقنون بن دبّارة الأجّاني = ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد: **البَيَان الْمُغْرِب في أخبار الأندلس والْمَغْرب**، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، ط٣، ١٩٨٣م، ١/١٦٨.

(٨) ابن عذاري: البيان، مصدر سابق، ١/١٧.

(٩) الكندي المصري، أبو عمر محمد بن يوسف: **كتاب الولاة وكتاب القضاة**، مهذبً ومصححً بقلم رفن كَست، بيروت، مطبعة الآبا اليسوعيين، ١٩٠٨م، ص٢٦٨.

(١٠) ابن عذاري: البيان، مصدر سابق، ١٦٣/١.

(١١) عماد الدين، إدريس: **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب** "القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار في ذكر النبي المصطفى ووصيّه الكرّار وآلهما الأطهار"، تحقيق محمد اليعلاوي بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٥م، ص١٩٢.

(١٢) ابن عذاري: البيان، مصدر سابق، ١٦٨/١-١٦٩.

(١٣) المصدر نفسه، ١٧٥/١.

(١٤) نفسه، ١٨٧/١-١٨٨. كذلك إدريس عماد الدين: **عيون الاخبار**، مصدر سابق، ص٢١٤.

(١٥) الدّشْراوي، فرحات: **الخلافة الفاطمية بالمغرب (٢٩٦-٣٦٥هـ/٩٠٩-٩٧٥م) التاريخ السياسي والمؤسسات**، نقله إلى العربية حَمّادي السّاحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٤م، ص٦٣. كذلك بيضون، إبراهيم: الفاطميون **قراءة مختلفة في تاريخ ملتبس**، دار المؤرخ العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٣، ٢٦-٢٧.

(١٦) العبادي، أحمد مختار: **في التاريخ العباسي والفاطمي**، بيروت، دار النهضة العربية، د. ت، ص٢١٩.

(١٧) حسن، حسن إبراهيم: **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٥٨م، ص٤، ٨.

(١٨) أحمد مختار العبادي: **التاريخ العباسي والفاطمي**، مرجع سابق، ص٢١٩.

(١٩) من هذه الدول: الدولة البيزنطية في القسطنطينية، والدولة الأموية في الأندلس، والخلافة العباسية في بغداد. ومن دول المغرب الإسلامي: دولة الأغالبة في المغرب الأدنى، والدولة الرستمية في المغرب الأوسط، ودولة الأدارسة والدولة المدرارية (بَني واسول) في المغرب الأقصى.

(٢٠) عباس محمود العقاد: **فاطمة الزهراء**، مرجع سابق، ص٦٦.

(٢١) ابن مُيَسَّر، تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جَلَب رَاغِبْ: **الْمُنْتَقَى من أخبار مصر**، حَقّقه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهارسه أيمن فؤاد سَيِّد، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨١م، ص١٨-٢١. كذلك دخيل، محمد حسن: **الدولة الفاطمية الدور السياسي والحضاري للأسرة الجمالية**، الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٩.

(٢٢) أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الأمامية، وكان من سادات أهل البيت ولُقّبَ بالصّادق لصدْقه في مقالته. وُلِدَ سنة ٦٩٩/٥٨٠م، وقيل سنة ٧٠٢/٥٨٣م. وتُوفيّ بالمدينة سنة ٧٥٧/١٤٠م، ودُفِنَ بالبقيع (ﷺ) = ابن خَلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان فيما ثَبُتَ بالنّقل أو السّماع أو أثبته البيان**، حَقّقه إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٩٤م، مج١/٣٢٧.

(٢٣) ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، ٤١/٤.

(٢٤) المقريزي: **اتّعاظ الحُنَفَا**، مصدر سابق، ٤١/١.

(٢٥) أبو القاسم الحسن بن فَرَح بن حَوْشَب بن زادان النجار، من أهل الكوفة. رحل إلى اليمن سنة ٢٦٨هـ/٨٨١م، وعمل على نشر الدعوة الإسماعيلية فيها، فنجح نجاحً كبيرً، وتَلَقّب بالمَنصور. وقد عمل ابن حوشب على تفريق دعاة الإسماعيلية في اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب ابن خلدون: تاريخ، مصدر سابق، ٣٥/٤. كذلك إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص٥٩، ٦١، ٦٨-٧٢.

(٢٦) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: **الكامل في التاريخ**، راجعه وصَحّحَه محمد يوسف الدّقّاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ٤٥٠/٦.

(٢٧) ابن الأثير، **الكامل**، مصدر سابق، ٤٥٠/٦، ٤٥١ وما بعدها.

(٢٨) أحمد مختار العبادي: **التاريخ العباسي والفاطمي**، مرجع سابق، ص٢٢٤، ٢٢٥.

(٢٩) ابن الأثير، **الكامل**، مصدر سابق، ٤٦١/٦.

(٣٠) عباس محمود العقاد: **فاطمة الزهراء**، مرجع سابق، ص٦٦.

(٣١) ابن عذاري: البيان، مصدر سابق، ١٧٠/١.

(٣٢) القاضي النّعمان، أبو حنيفة النّعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيّون، **كتاب افتتاح الدعوة**، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس-الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع- ديوان المطبوعات الجامعية، ط٢، ١٩٨٦م، ص٢٦٠، ٢٦١-٢٦٢. كذلك إدريس عماد الدين: **عيون الأخبار**، مصدر سابق، ص١٣٥-١٣٦.

(٣٣) هالم، هاينز: **الفاطميّون وتقاليدهم في التعليم**، تعريب سيف الدين القصير، دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، ط١، ١٩٩٩م، ص٤٧.

(٣٤) إدريس عماد الدين: **عيون الأخبار**، مصدر سابق، ص١٩٢، ٢١١-٢١٢.

(٣٥) هاينز هالم: **الفاطميّون**، مرجع سابق، ص٤٧.

(٣٦) القاضي النعمان: **كتاب المجالس والمسايرات**، تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شَبُّوح ومحمد اليعلاوي، بيروت، دار المنتظر، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٤٨.

(٣٧) دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣م (مجلدان).

(٣٨) هاينز هالم: **الفاطميّون**، مرجع سابق، ص٤٨-٤٩.

(٣٩) ابن حَجَر العَسْقَلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد: **رَفْعُ الإصْر عن قُضَاة مصر**، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٩٨م، ص ٣٥٦. كذلك النّائب الأنصاري، أحمد بن الحُسَين: **نَفَحَات النّسرين والرّيحان فيمَن كان بطرابلس من الأعيان**، تقديم وتعليق محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ١٩٩٤م، ص٩٢.

(٤٠) المقريزي: **اتعاظ الحنفا**، مصدر سابق ٢٦٢/١.

(٤١) قيل إنّ الفقيه المالكي جبلّة بن حمود بن جبلّة الصّدفي (ت: سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م)، عندما حضر أول خُطبة للفاطميين في جامع

القيروان، جلس عند المنبر، فَلَمّا سَمِعَ ما لا يجوز سماعه قام قائمً وكشف عن رأسه حتى رآهُ الناس، ومَشَى من المنبر إلى آخر باب الجامع والناس ينظرون إليه، حَتّى خرج من الباب وهو يقول: **"قطعوها قطعهم الله"**. فمن حينئذٍ ترك العلماء حُضُور جمعتهم، وهو أول من نَبّه على ذلك رضي الله عنه = الْمَالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد: **كتاب رِيَاض النُّفُوس في طبقات علماء القيروان وإفْريقِيّة وزُهّادهم ونُسّاكهم وسِيَرَ من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، حَقّقَه بشير الْبَكّوش وراجعه محمد الْعَروسي المطوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٤م، ٢٧/٢، ٤٢-٤٣.

(٤٢) أحمد مختار العبادي: **التاريخ العباسي والفاطمي**، مرجع سابق، ص٢٥٥. كذلك حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، مرجع سابق، ص٣٧٧.

(٤٣) التّجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد: **رحلة التّجاني، ليبيا**-تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م، ص٢٥٣، ٢٥٤.

(٤٤) كان دخول المعز لمدينة طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م، وبَقيّ فيها إلى أنْ رحل عنها يوم السبت السابع عشر من ربيع الآخر من السنة نفسها = ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس، مطبعة الدولة التونسية، ط١، ١٣٨٦هـ، ص٦٣.

(٤٥) الزّاوي، الطّاهر أحمد: **معجم البلدان الليبية**، طرابلس، مكتبة النور، ط١، ١٩٦٨م، ص٩٤. كذلك الكيب، نجم الدين غالب: مدينة طرابلس عبر التاريخ، ليبيا-تونس، الدار العربية للكتاب، ط٢، ١٩٧٨م، ٥٥. مِيسّانا، غاسبري: **الْمِعْمَار الإسلامي في ليبيا**، تعريب علي الصّادق حَسنين، د. م، الناشر مصطفى العجيلي، ١٩٧٣م، ص١٦٥.

(٤٦) البَكْرِيّ: الْمُغرِبُ، مصدر سابق، ص٥. كذلك ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، مج١/ ١٠.

(٤٧) البَلّوشي، علي مسعود: **تاريخ معْمَار المسجد في ليبيا في العَهدين العثماني والقَرمَانَلّي ١٥٥١-١٩١١م (نشأة ونمو وتطور أنماط المساجد الليبية)**، طرابلس، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ٢٠٠٧م، ص٦١.

(٤٨) مدينة سرت القديمة أو مدينة السّلطان الأثرية: تقع إلى الشرق من مدينة سرت الحاليّة بحوالي ٥٠ كم. والسلطان المقصود هنا هو المعز لدين الله الفاطمي، وقد عُرِفَت قبل ذلك ومنذ قديم الزمان بأسماءَ أخرى هي على التوالي: سورتوس (Sortos) زمن الإغريق، ثم خاراكس (Charax) زمن الفينيقيين، ثم أسكينا (Iscina) زمن الروم، ثم سرت (Sort) زمن الجغرافيين والمؤرخين المسلمين الأوائل، وقد شاع نطقها خطأً سرت (Sirt). وحاليً تُعرف بالسّلطان، ويعرفها سكان المنطقة أيضً بـ"الْمُدَيْنَة"، وهي تصغير لكلمة "مدينة" = شَلّوف، عبد السلام محمد: **مُعجم المواقع والوقائع الليبية - أسماء وتواريخ المدن والقرى والأماكن الليبية**، بنغازي، شركة المجموعة الوطنية للهندسة والانشاءات العامة - دار ومكتبة الفضيل، ٢٠٠٩م، ص٣٧٤.

(٤٩) فيهرافاري، غيزا ومسعود شقلوف وآخرون: **حَفْرِيّات سرت (مدينة سلطان) ١٩٧٧-١٩٨١م**، ترجمة مصطفى عبد الله التّرجمان، ليبيا، منشورات مصلحة الآثار، د. ت، ص٣، ٤٨، ٧١. كذلك حامد، سعيد علي: **تاريخ ومعالم الحضارة والعمران في ليبيا** (بحث منشور ضمن كتاب معالم الحضارة الإسلامية في ليبيا)، القاهرة، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٦-١٦١.

(٥٠) عبده، عبد الله كامل موسى: **مدينة برقة وآثارها الإسلامية عبق التاريخ وطُرُز العمارة**، القاهرة، دار الآفاق العربية، ط١، ٢٠٠٢م، ص٨٢. كذلك عبد السّيّد، عبد الحميد: **مدينة برقة (المرج الحديثة)**، تلخيص أنطون حبيقة، مجلة ليبيا القديمة، المجلد الثامن، ١٩٧١م، ص٢٣.

(٥١) عبد الله كامل موسى عبده: **مدينة برقة**، مرجع سابق، ص٨٢.

(٥٢) غيزا فيهرافاري وآخرون: **حَفْرِيّات سرت**، مرجع سابق، ٦٥-٦٦.

(٥٣) عبد السّيّد، عبد الحميد وإدريس أحمد بادي وعبد القادر سعيد المزيني: **حَفْرِيّات مسجد زويلة**، مجلة ليبيا القديمة، المجلد الخامس عشر والسادس عشر، ١٩٧٨-١٩٧٩م، ص٦٦.

(٥٤) سعيد علي حامد: **تاريخ ومعالم**، مرجع سابق، ص١٩٠-١٩٢.

(٥٥) ماجد، عبد المنعم: **أصل حفلات الفاطميين في مصر (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)**، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الثاني، السنة السادسة، العدد الثاني، ١٩٥٤م، ص٢٥٤-٢٥٦.

(٥٦) عنان، محمد عبد الله: **رسوم الفطر والأضحى في عهد الدولة الفاطمية**، مجلة الرسالة، القاهرة، المجلد الأول، السنة الرابعة، العدد ١٤٠، ١٩٣٦م، ص٣٦٤-٣٦٥.

(٥٧) للمزيد عن الأعياد الفاطمية يُنظر: الأحمر، رمضان محمد رمضان: **الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الدولة الفاطمية (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)**، بنغازي، منشورات جامعة بنغازي، ط٢، ٢٠٢١م، ص٣١١-٣٧١.

(٥٨) المقريزي: **المواعظ والاعتبار بذكر الخِطَط والآثار المعروف بالْخِطَط المقريزيّة**، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٨م، ٣٥٥/٢.

(٥٩) ابن المأمون البطائحي، جمال الدين أبو علي موسى: **نُصُوص من أخبار مصر**، حَقّقَها وكتب مقدمتها وحواشيها ووضع فهارسها أيمن فؤاد سَيّد، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨٣م، ص٤٨ –٥٣.

(٦٠) مفردها سِمَاطٌ: وهو كلمة شاع استعمالها في أيام الفاطميين للدلالة على ما يُبْسَطُ ليوضع عليه الطعام، فهناك أسمطة رمضان، وأسمطة عيدي الفطر والأضحى، وسِمَاطُ الحزن، وغيرها من الأسمطة التي كانت تُمَدّ في الأعياد والمواكب التي كثرت في عصر الفاطميين في مصر = رمضان محمد رمضان الأحمر: **الحياة الاجتماعية**، مرجع سابق، ص٥٧، هامش (**).

(٦١) ابن الطُّوَيْر، أبو محمد الْمُرْتَضَى عبد السّلام بن الحسن القَيْسَرَاني: نُزْهة الْمُقْلَتَيْن في أخبار الدّولتين، أعاد بِنَاءَهُ وحَقَّقَهُ وقَدَّم له أيمن فؤاد سَيّد، شتوتغارت، فرانتس شتاينر، ١٩٩٢م، ص٢١٢-٢١٤. كذلك المقريزي: الخطط، مصدر سابق، ٢/١١٣-١١٤.

(٦٢) المقريزي: **مُسَوَّدة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، حَقّقها وكتب مقدمتها ووضع فهارسها أيمن فؤاد سيّد، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٩٩٥م، ص١٢٣-١٢٤.

(٦٣) ابن تَغْري بَرْدي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، قدّم له وعلّق عليه محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م، ٤/٩٨.

(٦٤) المالكي: رِيَاض النُّفُوس، مصدر سابق، ٢/٤٠٤-٤٠٥. كذلك الدّبّاغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأُسيدي: مَعَالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعَلّق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تحقيق وتعليق محمد ماضور، تونس-مصر، المكتبة العتيقة-مكتبة الخانجي، ١٩٧٨م، ٣/٤٩.

(٦٥) رمضان محمد رمضان الأحمر: **الحياة الاجتماعية**، مرجع سابق، ص٣٧٨-٣٧٩.

(٦٦) ابن حَمّاد، أبو عبد الله محمد بن علي: **أخبار مُلُوك بَني عُبَيد وسيرتهم**، تحقيق ودراسة التّهامي نقرة وعبد الحليم عويس، القاهرة، دار الصّحوة للنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ، ص٨١.

(٦٧) مِتز، آدم: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النّهضة في الإسلام**، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٥، د. ت، ٢/٢٩٩–٣٠٠.

(٦٨) ابن الزُّبَيْر، الرشيد أبو الحسن أحمد بن الرشيد: **كتاب الذّخائر والتُّحَف**، حَقّقه محمد حميد الله، قَدّم له وراجعه صلاح الدين المنجد، الكويت، دائرة المطبوعات والنشر، ط١، ١٩٥٩م، ص١٢٤-١٢٥. كذلك المقريزي: اتعاظ الحنفا، مصدر سابق ١/٩٤.

(٦٩) القاضي النعمان: **المجالس والمسايرات**، مصدر سابق، ص٥٥٦-٥٥٧. وعنه نقل إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص٦٣٨-٦٣٩.

(٧٠) القاضي النعمان: **المجالس والمسايرات**، مصدر سابق، ص٥٥٧-٥٥٨. كذلك إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص٦٣٩-٦٤٠.

(٧١) القاضي النعمان: **المجالس والمسايرات**، مصدر سابق، ص٥٥٧.

(٧٢) المصدر نفسه، ص٥٥٩.

(٧٣) التجاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٦٦.

(٧٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٧٥) المالكي: **رِيَاض النُّفُوس**، مصدر سابق، ٢/٥٥.

(٧٦) الدّبّاغ: **معالم الإيمان**، مصدر سابق، ٣/٤٩.

(٧٧) **القرآن الكريم**: سورة التوبة، الآية (١١٧).

(٧٨) النائب الأنصاري: **نَفَحَات**، مصدر سابق، ص٧٢.

(٧٩) ابن فَرحون المالكي، إبراهيم بن نور الدين: **الدّيباج الْمُذْهَب في معرفة أعيان علماء الْمَذْهَب**، دراسة وتحقيق مأمون بن محيي الدين الجَنّان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٩٦م، ص٩٤.

(٨٠) القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض السّبتي: **ترتيب الْمَدَارك وتقريب الْمَسَالك لمعرفة أعلام مَذهب مالك**، تحقيق سعيد أحمد أعراب، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٢م، ٢/٧٠١-٣٠١.

(٨١) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ١/١٨٨.

(٨٢) ابن حَجَر العَسْقَلاني: **رَفْعُ الإصْر**، مصدر سابق، ص ٣٥٦. كذلك النّائب الأنصاري: **نَفَحَات**، مصدر سابق، ص٩٢.

(٨٣) التجاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٥٣، ٢٥٤

(٨٤) ابن حَمّاد: **مُلُوك بَني عُبَيد**، مصدر سابق، ص٥٠.

(٨٥) حواله، يوسف بن أحمد: **الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري (٩٠-٤٥٠هـ)**، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ط١، ٢٠٠٠م، ٢/٧٣.

(٨٦) إدريس، الهادي روجي: **الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بَني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م)**، نقله إلى العربية حَمّادي الساحلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٢م، ٢/٣٢٢.

(٨٧) المرجع نفسه، ٢/٣٥٤.

(٨٨) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ١/٢٧٧.

(٨٩) الهادي روجي إدريس: **الدولة الصنهاجية**، مرجع سابق، ٢/٣٥٤.

(٩٠) المرجع نفسه، ص٣٢٤.

(٩١) يوسف بن أحمد حواله: **الحياة العلمية**، مرجع سابق، ٢/٨٥.

(٩٢) كان أهل الشّيعة في المغرب يُسَمّون بالْمَشَارقة نسبة إلى أبي عبد الله الشّيعي الذي كان قد قَدِمَ من الْمَشْرِق، ولهذا عُرِفَت هذه الوَقْعَة في إفريقية بـ"وَقْعَة الْمَشَارقة" = ابن الأثير: **الكامل**، مصدر سابق، ٨/١١٤.

(٩٣) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ١/٢٧٤.

(٩٤) المصدر نفسه، ١/٢٧٣-٢٧٤.

(٩٥) الدّبّاغ: **معالم الإيمان**، مصدر سابق، ٣/١٥٤.

(٩٦) التجاني: الرحلة، مصدر سابق، ص ٢٦٥-٢٦٦. كذلك ابن ناصر الدَّرْعِي، أبو العباس أحمد بن محمد: **الرحلة الناصريّة ١٧٠٩-١٧١٠م**، حقّقها وقدّم لها عبد الحفيظ ملوكي، أبو ظبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م، ص١٨٩-١٩٠.

(٩٧) رمضان محمد رمضان الأحمر: **التّوَسّع الفَاطمي في إقْلِيمَي طرابلس الغرب وبرقة وموقف الأهالي منه (٢٩٧-٣٤٣هـ/٩٠٩-١٠٥١م)**، مجلة جامعة بنغازي العلمية، العدد الأول، المجلد ٣٤، ٢٠٢١م، ص٤٨.

(٩٨) للمزيد عن الوليد بن هشام (أبو ركوة)، وثورته التي أشعلها ضد الحكم الفاطمي في برقة ومصر يُنظر:
Alahmar, Ramdan M Ramdan and Ahmed Faisal bin Abdul Hamid: "The Revolution of Abu Rakwah Against the Fatimids In Barca And His Attempt to Overthrow Their Rule in Egypt", JOURNAL AL-MUQADDIMAH,

Department of Islamic History and Civilisation in Malaya University, Volume 5, Issue 1, June, 2017.

(٩٩) الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى: **تاريخ الأنطاكي "المعروف بِصِلَة تاريخ أوتيخا"**، حقّقه وصنع فهارسه عمر عبد السلام تدمري، طرابلس الشام، جرّوس برسّ، ١٩٩٠م، ص٢٦٢.

(١٠٠) البُنُود: مفردها الْبَنْدُ، وهو كل علمٍ من الأعلام، وهو العلم الكبير الضخم = ابن مَنْظُور، عبد الله بن محمد بن الْمُكرّم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي: لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، القاهرة، دار المعارف، د.ت، مج١، ٣٥٨/٣ (مادة بند).

(١٠١) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ٢٧٧/١-٢٧٩.

(١٠٢) نسبةً إلى عُبَيْدِ الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ومؤسس دولتهم.

(١٠٣) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ٢٧٨/١-٢٧٩.

(١٠٤) كان اللّون الأسود شعار الدولة العباسية وبه عُرِفَت منذ قيامها سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م. في حين كان الفاطميون على نقيضهم قد اتخذوا اللّون الأبيض شعارًا لدولتهم. وكان كل من دَعَا للدولة العلوية قبل الفاطميين يتخذ البياض شعارًا له (أحمد، زهير: **رايات العرب والمسلمين وبنودهم وأعلامهم وبيارقهم**، مجلة المورد، المجلد الخامس، العدد الثالث، ١٩٧٦م، ص٤٥-٤٧. لذلك اتخذ الفاطميون الرايات البيضاء شعارًا لهم وقد سُمّيَت لهذا السّبَب "مُبَيّضَة"، مخالفة للعباسيين الذين سُمّيَت راياتهم "مُسَوّدَة"، أي سوداء = ماجد، عبد المنعم: **نُظُم الفاطميين ورُسُومهم في مصر**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٨٥م، ٢١٤/١.

(١٠٥) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ٢٨٠/١.

(١٠٦) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ٢٨٨/١.

(١٠٧) المصدر نفسه، ١٧٠/١.

(١٠٨) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ١٧٠/١.

(١٠٩) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(١١٠) نفسه.

(١١١) نفسه.

(١١٢) نفسه، ١٧٢/١.

(١١٣) نفسه، ١٧٥/١.

(١١٤) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(١١٥) ابن خَلّكان: **وفيات الأعيان**، مصدر سابق، مج٤/٤٢٢.

(١١٦) ومن أبيات هذه القصيدة:

عَصَفَتْ، على الأعرابِ، منك زَعازِعٌ
سَفَكَتْ دمَ الأقرانِ بالأقران
ما قَرَّ أعينُ آل قُرّة مذ سُقُوا،
بكَ ما سُقُوه من الحَميم الآني
وقبيلةً قَتَّلْتَها، وقبيلةً
أثكَلْتَها بالبَرْكِ في الأعْطَانِ

ويلاحظ في البيت الثاني تلاعبه بلفظ القرّ ومقابلته بالنار الجهنمية التي أنزلها أفلح الناشب بقبيلة بَني قُرّة = إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص٦٧٢. كذلك اليعلاوي، محمد: ابن هانئ المغربي الأندلسي شاعر الدولة الفاطمية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٥م، ص٩٣.

(١١٧) ياقوت الحموي: **مُعجم الأُدَباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣م، ٢٦٦٧/٦. كذلك ابن خَلّكان: **وفيات الأعيان**، مصدر سابق، مج٤/٤٢٢.

(١١٨) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ١٦٣/١.

(١١٩) إدريس عماد الدين: **عيون الأخبار**، مصدر سابق، ص١٩٢.

(١٢٠) ابن عذاري: **البيان**، مصدر سابق، ١٦٨/١، ١٦٩.

(١٢١) أبي العرب، محمد بن أحمد بن تميم التّميمي: الجزء السابع من كتاب **طبقات علماء إفْريقِيّة**، رواية أحمد بن محمد الطلمنكي، جاء ضمن مجلد مع كتاب طبقات علماء تونس للمؤلف نفسه وكتاب طبقات علماء إفْريقِيّة لمحمد بن الحارث الخشني، بيروت، دار الكتاب اللبناني، د. ت، ص٢٥٣. كذلك الطّاهر أحمد الزّاوي: **أعلام ليبيا**، بيروت، دار المدار الإسلامي، ط٣، ٢٠٠٤م، ص٢٦-٢٦١.

(١٢٢) مخلوف، محمد بن محمد: **شجرة النُّور الزَّكِيّة في طبقات المالكية**، بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت، ص٦٠.

(١٢٣) السّباني، صالح الصادق: **ليبيا أثناء العهد الْمُوَحّدي والدولة الحفصية (ق ٦-١٠هـ/ ١٢-١٦م)**، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط١، ٢٠٠٦م، ص٤٨٨.

(١٢٤) صالح الصادق السّباني: ليبيا، مرجع سابق، ص٤٨٩.

(١٢٥) التجاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٦٤-٢٦٦.

(١٢٦) أبي العرب: الجزء الثالث من **كتاب طبقات علماء إفْريقِيّة**، مصدر سابق، ص١٠٢. كذلك ابن فرحون المالكي: الدّيبَاج، مصدر سابق، ص٢٦٣.

(١٢٧) صالح الصّادق السّباني: **ليبيا**، مرجع سابق، ص٤٨٩.

(١٢٨) هو أبو علي الفُضَيْل بن عيَاض التّميمي المروزي، الزاهد المشهور أحد العلماء الأعلام. وُلدَ بسَمَرقند وقدم الكوفة شابًا ثم جاور مكة إلى أنْ تُوفيّ بها سنة ١٨٧هـ/٨٠٢م. قيل الكثير في فَضله وزُهده وحُسن إسلامه مما لا يسع المجال لذكره، ومن ذلك وصفهم له بأنه: إمام الحرم، شيخ الإسلام، قُدوة الأعلام، كان إمامًا رَبّانيًّا، كبير الشأن، ثقة، نبيلًا، زاهدًا، جليلًا، حجة أهل زمانه = ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي أحمد بن محمد العكري الحنبلي: **شَذَرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط١، ١٩٨٨م، مج٢/٣٩٩-٤٠١.

(١٢٩) التجاني: **الرحلة**، مصدر سابق، ص٢٥١.

(١٣٠) القاضي عياض: **ترتيب المدارك**، مصدر سابق، ٣٢٣/٣.

(١٣١) ابن فرحون: **الدّيباج**، مصدر سابق، ص٤٢١-٤٢٢.

(١٣٢) المصدر نفسه، ص٢٩٧. كذلك النائب الأنصاري: **نَفَحَات**، مصدر سابق، ص١٨١.

(١٣٣) أبو فارس، حمزة: ابن زكرون الأطرابلسي **المُحَدّث الزّاهد**، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، كلية الدعوة الإسلامية، العدد الثاني عشر، ١٩٩٥م، ص.٢٣.

(١٣٤) ابن فرحون: **الدّيباج**، مصدر سابق، ص٢٩٧. كذلك النائب الأنصاري: **نفحات**، مصدر سابق، ص١٨١.

(١٣٥) أبا يحيى مالك بن دينار، كان أبوه من سبي سجستان، وقد اشتهر مالك بالزهد، وهو علمُ العلماء الأبرار، معدود في ثقات التابعين، ومن أعيان كُتَبَة المصاحف، راوية حديث، وثِقَة النسائي وغيره، واستشهد به البُخَاريّ، وحديثُه في درجة الحسن، وله نحو من أربعين حديثً، تُوفيّ سنة ١٢٧ه/٧٤٤م، وقيل سنة ١٣٠ه/٧٤٧م = الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: **سِيَرَ أعلام النبلاء**، تحقيق شُعيب الأرنؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٢م، ٥/٣٦٢-٣٦٤.

(١٣٦) أبي العرب: الجزء الأول من **كتاب طبقات علماء إفْريقِيّة**، مصدر سابق، ص٦.

(١٣٧) القاضي عياض: **ترتيب المدارك**، مصدر سابق، ٣/٧ . ١.